1048

HARLEQUIN

١٠٤٨

دار م. النحاس

عبير

شيء مفقود

كيت ووكر

www.elromancia.com

مرمورية

شيء مفقود

كيت ووكر

لم يكن الأمر مبكراً بالنسبة إلى بول، وهو لم يكن متعجلاً في شيء. هي كانت مستعدة وراغبة أن تعطيه الحب كله. ولكنها كانت تريد أن يخبرها بانه يحبها هو ايضاً، وهذا لن يحدث أبداً.

لكن بول سارين كان يعتقد بان تشارلي لم تكن تستحق من ثقته اكثر مما يستحق ابن خالته المراوغ برايان. والآن، بعدما أصبح شارلي وبرايان خطيبين، كيف يمكنها اقناع بول بانها مستعدة لأن تقوم باي شيء لأجله، لأنها تحبه؟ ولماذا تجري الأمور دوماً بهذا الشكل؟

كانت تريده أن يحبها

ولكن بول لم يكن يشعر نحوها بشيء. وكيف يكون هذا وهو يحتقرها ولا يثق بها، ويراها مجرد فتاة دخيلة تستغل عمته المحبوبة لسلبها نقودها؟ عمته التي أحبته إلى درجة انها قدمت له البيت الذي يأويه بعد ان مات والداه؟

الحقيقة ان الخوف قد اشتد بها عندما أدركت أنها أحبته الآن وإلى آخر حياتها.

كيت ووكر

ولدت كيت ووكر في «نوتنغهام شاير» في انكلترا ولكن، بما أنها نشأت في «يوركشاير»، فقد كانت تشعر على الدوام، بأن جذورها هي هناك.

تعرفت إلى زوجها في الجامعة، عملت أمينة مكتبة أطفال. ولكن، بعد ولادة طفلها، عادت إلى الكتابة التي عشقتها منذ صباها. وفي أوقات فراغها، تقسم وقتها بين أسرتها، وقططها الثلاث، واهتماماتها بالتطريز والتحف والأفلام والمسرح، وطبعاً، القراءة.

عبير ١٠٤٨

Abir 1048

شيء مفقود

كيت ووكر

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromansia.com

الفصل الأول

«تشارلي... هنالك رجل في المدجنة.»

وردت تشارلي بشرود: «ماذا؟»

كانت تشارلي مركزة انتباهها على ما تعمله بين يديها، عندما سمعت هذه الكلمات كانت شاردة الذهن، وهي جاثية على العشب محنية الرأس تحاول جاهدة حل أربطة فردتي حذاء ابن عمتها البالغ من العمر عشرة أعوام، والتي عقدها بشكل لا يحل، وما زاد من سوئها، تلك الرحلة التي جعلت من هذا الحذاء الذي كان من قبل نظيفاً لامعاً، حذاءً قذراً ملطخاً بالوحل مما جعل عقد الأربطة تلك غير قابلة للفكاك.

فكرت تشارلي بأسى كيف كانت عمتها جين تفتك بها وهي تقول بحدة: «ما هذا يا شارلوت؟ كنت اتوقع منك تصرفاً افضل من هذا بعد ان بلغت الرابعة والعشرين وصار عليك ان تشعري بالمسؤولية قليلاً ليمكنني الاعتماد عليك في احضار توماس إلى المنزل بشكل أكثر لياقة.»

تنهدت تشارلي بضعف وهي ترفع شعرها البني الفاتح عن وجهها لتدسه تحت القلنسوة الواسعة التي تعتمرها، دون أن تنتبه إلى ما نثرته يداها وكتاها من وحل على وجهها، انها لم تستطع ان تفهم لماذا أبوها وأخته هما على طرفي نقيض إلى هذا الحد، ولا يتشابهان في أي شيء.

قال توم يحثها بقلق: «تشارلي، هنالك حركة في مدجنة الآنسة ماك، واظن ثمة من يسرق البيض.»

هتفت تشارلي الآن بصوت مختلف: «ماذا؟» كانت قد يئست من فك الأربطة من بعضها، فقفزت واقفة على قدميها، واستدارت مسرعة تحدق إلى حيث كان توماس يشير.

كان على بعد حقلين منهما، عند سفح التل، بيت خشبي يحتوي على دجاجات اميلي ماكنزي بدا لعيني تشارلي هادئاً ليس فيه ما يريب.

قالت للصبي محذرة: «توم.»

كانت تعرف جيداً مقدرة ابن عمها على القيام بأعمال ماكرة، وسروره وهو يختلق القصص الخيالية، وألقت تشارلي بنظرة اتهام إلى الغلام الواقف بجانبها. وبادر الغلام يقول بسرعة: «انها ليست مزحة يا تشارلي، بل هي حقيقة. صدقيني.»

سألته: «أهو رجل؟»

أجاب: «انه رجل ضخم غليظ يلبس سترة من الجلد.»

في تلك اللحظة، صدرت زعقة من داخل بيت الدجاج ذاك مخترقة هدوء عصر ذلك اليوم.

ركضت تشارلي دون ان تلوي إلى شيء والغضب يغلي في داخلها.

كيف يجرؤ؟ كيف يجرؤ؟ كانت هذه الكلمات تعتمل في عقلها أثناء ركضها. كيف يجرؤ أي شخص على الانسلال إلى بيت الآنسة ماكنزي ليسرق البيض، وخصوصاً في ظروفها هذه؟

لكن، في نفس الوقت، كانت كلمات برايان الهادئة التي اعتاد أن يرددها في مثل حالتها الآن (لماذا كل هذا الاضطراب؟) كانت هذه الكلمات تعود إلى ذهنها وكأنها

تسمعها منه الآن. بل كانت تسمعه يقول: «لماذا كل هذه الضجة لأجل عدد من الدجاجات العجفاوات التي لا تبيض إلا في الوقت الذي يناسبها ولحومها قاسية ذات ألياف لاينفع معها الطبخ.

لكنني وعدت إميلي بأن اعتني بها. وكان كلامه هذا يغضب تشارلي.

دفعتها مشاعرها هذه وانفعالها إلى الاسراع في ركضها أكثر مما كانت تتوقع لتدرك فجأة، ودون توقع أو استعداد منها، انها إذا لم تتوقف عن الركض، وبقيت على اندفاعها هذا فلربما ستنتهي في بيت الدجاج نفسه... أما ماذا ستكون نتيجة هذا، فهي لم تهتم بالتفكير فيه.

فجأة تجمدت في مكانها بشعور غريزي، مما جعل جسدها يهتز إلى درجة مؤلمة. ما الذي كانت هي في سبيله الآن؟ انه رجل، وكما قال توماس، ضخم فظ. وفجأة، تلاشى بعض غضبها تاركاً إياها فريسة للتشوش والاضطراب.

بعث صوت الحركة من داخل البيت ذاك التوتر في اعصاب تشارلي. كان هذا المنزل المشرف على النهر يبعد أكثر من خمسة اميال عن أقرب منزل في القرية. وكم مرة ادركها القلق على إميلي ماكنزي في عزلتها هذه، حيث كانت تسكن بمفردها بعيدة عن كل مساعدة فيما لو احتاجت إليها. وحتى الآن مازالت تفكر إلى أي مدى يمكن ان تؤثر عليها وعلى توماس هذه العزلة... خاصة في هذا الوقت بالذات.

أخيراً، التفتت إلى الخلف حيث لم يستطع توماس اللحاق بها بسبب ساقيه القصيرتين. وكان الآن يعبر الحقل الثاني متجهاً نحوها.

نادته بصوت أعلى قليلاً من الهمس ولكنه بدا لها وكأنه تحول فجأة، من الجو الآمن الهادىء، إلى آخر خانق مشحون بالتوتر وكأنه يتضمن تهديداً مبهماً.

عادت تقول له: «لا تقترب أكثر من ذلك.»

يا إلهي، ماذا ستفعل العمة جين لو لحق بعزيزها الغالي توم أي أذى؟ وضاقت عينا تشارلي العسليتان خوفاً مما قد يكون هناك، ثم صرخت مرة أخرى بحدة وقد غمرها الخوف عندما فتح باب بيت الدجاج وظهر اللص.

شعرت تشارلي لأول وهلة، بأنه ليس من الضخامة كما صوره لها توم، وشعرت لذلك بشيء من الارتياح. ربما رآه الصبي كذلك بالنسبة لحجمه الصغير، ولكنه بدا لها هي، البالغ طولها حوالي المئة وثمانية وستين سنتمتراً، معتدلاً. كما أنه لم يكن ضخم الجسم كذلك. ولكن انتفاخ سترته الجلدية المبطنة اعطت جسمه مظهراً غير مظهره الطبيعي الذي كان لدناً رشيقاً أكثر مما هو قوي متين. حدثت نفسها بذلك وقد خف توترها نوعاً ما. وارتفعت عيناها إلى وجهه ليتوتر جسدها الفتي الطويل من جديد وتظلم عيناها العسليتان بالقلق. كان له وجه قوي التقاطيع عالي الوجنتين مستقيم الأنف قوي الفك. وقد اسبغت لحيته التي لم تحلق منذ يومين تقريباً، على وجه ظلاً خفيفاً، وذكر وجهه هذا، تشارلي بقطاع الطرق قديماً، والذين كانت جريمة الواحد منهم أهم كثيراً من مجرد سرقة بضع بيضات من بيت دجاج في قرية.

حولت هذه الأفكار عينيها إلى يديه لتشاهد البرهان على اتهام ابن عمتها الصغير له والذي كان عبارة عن أربع

بيضات سمراء اللون قد حملها براحتيه بحذر. وعندما ارتفعت عيناها إلى وجهه بنظرة اتهام شعرت بهزة في قلبها وهي تلاحظ أن ملامحه كانت أقرب إلى الرقة رغم مظاهر القوة في تقاطيعه، مما جعلها تتصوره ولداً صغيراً مبتهجاً، ببراءة، وهو يحمل بيضات طازجة في يده ما زالت دافئة، وهزت تشارلي رأسها شاعرة بالاضطراب دون ان تتمكن من ربط هذه الصورة التي تخيلتها، بالواقع البادي امامها. ولكن، بعد لحظة، قفز قلبها بين ضلوعها بعد أن أثارت انتباهه إلى وجودها حركة بسيطة منها، لترى كل مظهر للبهجة في عينيه الرماديتين اللامعتين غير العاديتين يزول ويحل مكانه غضب بارد أرسل ارتعاداً في جسدها.

قال بصوت كالثلج: «من أنت؟» كان في صوته لهجة لم تستطع تشارلي ادراك كنهها بالضبط، ولكنها ليست لهجة أهالي هذه المنطقة أبداً، إذ كانت أكثر ثباتاً وحدة.

فوجئت هي بهجومه ذاك في الوقت الذي لم يكن يبدو عليه أي اضطراب أو شعور بالذنب للقبض عليه متلبساً بالجرم المشهود، وجعلها ذلك تتلعثم في الرد قائلة: «انني...» ولم تعرف ماذا تقول.

عاد وهو يقول: «هذه أرض خاصة ليس من حقك التواجد فيها.»

كانت وقاحته وغطرسته وهو يقول هذا، مع وضعه ذاك، فوق ما أمكنها احتماله، وهي ذات المزاج الحاد، فرفعت رأسها قائلة وقد لمعت عيناها بالتحدي: «ما أهدأ اعصابك. انني اعرف طبعاً أن هذه أرض خاصة، واعرف

عن صاحبتها أكثر منك، بينما أنت من لا يملك الحق في التواجد هنا..» وفتح فمه ليتكلم ولكنها لم تترك له الفرصة لذلك، بل تابعت قولها: «انك أنت الذي يجب أن تفسر سبب وجودك هنا.»

قال توم بعصبية: «تشارلي...» فاستدارت عينا ذلك الرجل الرماديتان لحظة، ولما لم يجد فيه ما يسترعي اهتمامه، عاد ينظر إلى وجه تشارلي الساخط ليقول بلهجة متعالية: «ولماذا يجب عليّ أن افسر أي شيء لشخصين مشاكسين مثلكما؟»

هيجت اعصابها لهجة الازدراء في صوته، فازداد غضبها، فتقدمت خطوة إلى الأمام، متجاهلة محاولة توم لمنعها، وهي تقول: «كيف تجرؤ على هذا القول الذي لا حق لك فيه. انك أنت الذي تسرق.»

قاطعها: «أسرق؟»

اسكتتها كلمته هذه، بينما نظر الرجل إلى البيضات التي بين يديه وهو يقول بلهجة ضاحكة زادت في غضبها: «آه... هذا؟ ان هذا لا يسمى سرقة.»

ردت عليه بحدة وقد زاد جوابه الهادىء هذا في غضبها: «هكذا أسميه أنا. فأنت قد تعديت على بيت الدجاج وسرقت هذه البيضات و...»

قاطعها: «آه! هل معنى هذا انكما لم تكونا تخططان لأخذ هذا البيض دون ثمن؟»

شعرت تشارلي كأن هذا الاتهام الذي يوجهه إليها، بمثابة صدمة اصابت معدتها، فسكتت لحظة لا تستطيع الكلام، وخصوصاً أنها أدركت من نظرة الازدراء التي بدت في

عينيه، أن ترددها هذا قد فسره وكأنه اثبات لاتهامه هذا.

أخيراً قالت، رغم ادراكها من ملامحه أنه لم يعد يصدقها: «كلا. ليس الأمر هكذا. لقد كنا نتنزه فقط.»

قال: «تتنزهان بالتعدي على أملاك الغير؟» وفجأة، توجه نحوها، فاندفعت إلى الخلف غريزياً، وقد ابتدأت ضربات قلبها تتسارع، إذ أنه، عندما اصبح بجانبها، لم يبد عليه أنه اصبح أقل بعثاً للرهبة في نفسها كما قد تكون توقعت.

هكذا، باقترابه منها، استطاعت أن تميز عينيه اللتين تشبهان ثلج الشتاء بلمعانهما الذي لم تستطع اهدابه السوداء الكثيفة أن تخفيه، بل بالعكس، فقد ظهر التناقض بين ملامح الرجولة القوية في وجهه، والطريقة التي بدا فيها فمه خطاً قاسياً وكذلك بدا فكه الحازم.

قال: «اذا كنتما تتنزهان حقاً، فلماذا تدوران حول هذا المكان بالذات كالأشرار؟»

أجابت: «عندنا إذن من اصحاب المكان.»

كانت تشارلي تبدو غاضبة، وتعلم أن غضبها سيثير كوامن مزاجه السيىء، كما يبدو، فحاولت التخفيف من حدة انفعالها، ولكنها لم تستطع ان تمحو نبرة التحدي في صوتها. ولسعتها كلمة (كالأشرار)... ومع ذلك، فقد كان عليها أن تعترف بأن هذه الكلمة كانت مناسبة تماماً لمظهرهما ذاك إذ كانا يرتديان سروالي جينز رثين وكنزتين ملطختين بالوحل بسبب مغامرة توم عند بركة الطاحونة مما جعل مظهرهما يبدو بعيداً عن أن يكون محترماً.

وقال متهكماً: «طبعاً.» وكان في هذه الاثناء يضع البيض في جيبي سترته باحتراس مع أن انتباهه قد تحول هذه

اللحظة عنها، وكذلك عيناه، إلا انها أخذت تصرف بأسنانها غيظاً.

وعاد يقول: «وتتوقعان مني أن اصدق ان إميلي ماكنزي ممكن أن تمنح غلامين مثلكما أذناً بالتجوال في املاكها وربما منزلها أيضاً؟»

ثم رفع انظاره عن البيضات لتلتقي بأنظارها، وسرعان ما شعرت بالارتباك لعدة اشياء لاحظتها جعلتها تفقد شيئاً من غضبها ليشحب وجهها وهي تحاول أن تقرر، على ضوء ادراك مفاجيء اوشك ان يفقدها توازنها، التنحي جانباً لكي تستعيد هدوء اعصابها.

أول هذه الأشياء التي لاحظتها عندما وقف في ضوء الشمس، تاركاً ظل بيت الدجاج الذي كان يكتنفه، هو أن شعره لم يكن اسود كما بدا لها، بل كستنائي داكن، يتخلله لون نحاسي جعله يبدو كأوراق الشجر في الخريف. كما أن الضوء الباهر أوضح الهالات القاتمة التي تحيط بعينيه مما أنبأها عن عدم اخذه الكفاية من النوم. ومهما يكن السبب في ذلك، فقد أضاف هذا إلى ملامحه القوية بلحيته النابتة تأثيراً مشابهاً لما يتركه مظهر غجري سيىء السمعة، في النفس. ولا يمكن للانسان أن يثق به مطلقاً. ولكن، في نفس الوقت وفي أعماق ذاكرتها، كان ثمة شعور بعدم الارتياح... أين سبق ورأت هذا الرجل من قبل؟ ولكنها لم تستطع ان تتذكر أين.

ثاني هذه الأشياء، أن السترة الجلدية التي كان يرتديها، مع انها كانت بالية، كان يبدو عليها انها كانت يوماً ما، من جلد ثمين جداً، مما يعني أن هذا الرجل، رغم مظهره

الحالي، كان يوماً ما رجلاً غنياً. إلا إذا كان قد اشترى هذه السترة من سوق البالة للثياب القديمة.

لكن الأهم من ذلك كله هو أن يصفهما بالغلامين مما يظهر أن سروال الجينز والكنزة الكحلية اللذين ترتديهما قد اخفيا كل مظهر للأنوثة في جسدها، هذا بالاضافة إلى القلنسوة الكبيرة التي تخفي شعرها الأشقر الذي يصل إلى كتفيها، وكذلك وجهها الخالي من أية زينة على الاطلاق ما عدا مسحوق مرطب للبشرة، كل ذلك جعلها تبدو له غلاماً، وربما الأخ الأكبر لتوم.

وتبعاً لوضعها الحالي، واحتمال التهديد من قبل هذا الرجل إذا هو أدرك أنها ليست ذلك الغلام الصغير كما ظن، كان من المفروض ان تجعلها غلطته هذه تشعر بالارتياح، ولكنها، بدلاً من ذلك، شعرت بطعنة في كبرياء انوثتها لوصفه المزري ذاك لها ولكنها سرعان ما تخلت عن افكارها هذه ليحل محلها إدراك أكثر أهمية، وهو انه ذكر اسم إميلي ماكنزي بكل الفة. فسألته: «من أنت؟» وبدا لها للحظة، أنه لن يجيبها عن سؤالها، إذ نظر إليها وقد ظهر عليه وكأنه وجد سؤالها هذا وقحاً لا موجب له، ولكنه مالبث ان هز كتفيه دون اكتراث وهو يقول: «اسمي بول ساريزن.» قال ذلك بتعالٍ لا يتضمن فقط أنها تتدخل بهذا السؤال، في ما لا يعنيها، بل وكأنه مفروض انها لا بد سمعت باسمه من قبل... وكان هذا صحيحاً كما اعترفت تشارلي لنفسها وهي تخفي شعورها العدائي لدى سماعها باسمه.

هتف توم بتسرع الصبيان: «آه، عجباً! أنت إذن ابن الأخ الكريه؟»

لا شك في أن العمة جين كانت ستشتد في تعنيفها لو هي سمعته يتلفظ بمثل هذا الكلام النابي دون زجر منها. ولكن قلبها لم يكن ليطيعها في زجره. وخصوصاً وهو يعبّر، بكلماته هذه، عما في نفسها هي، وفي الواقع ان توم كان قد كوّن رأيه غير الحسن في هذا الرجل من تعليقاتها هي التي كانت تلقيها جزافاً، لأنه مثلها هي، لم يكن قد رآه أبداً من قبل، وإنما كانت العمة ماكنزي قد أرتها صوراً له، بالطبع، وهذا يفسر شعورها بأنها ربما سبق ورأته من قبل، ولكنه في الصور كان يبدو أحدث سناً لا يشبه أبداً هذا الرجل ذا الوجه القاسي المشاكس. وشعرت تشارلي بما يشبه الغثيان وهي تفكر في مدى الحب والزهو اللذين كانا يظهران في ملامح السيدة العجوز وهي تريها هذه الصور الغالية.

أجاب بول ساريزن باقتضاب: «في الواقع، ابن بنت الأخ.» ولم يظهر صوته أي استياء من كلمات توم الصغير ولكن تأثير ذلك ظهر في الغضب الذي ساد ملامحه. وتابع: «إن إميلي ماكنزي هي أخت جدي.»

فكرت تشارلي بازدراء في أنه يؤكد قرابته الآن... أي عندما وجد في ذلك مصلحة له. ومن المؤسف أنه لم يفعل ذلك من قبل عندما كان لهذا الأمر أهمية اكبر كثيرا منها الآن.

قال: «لقد جئت لزيارتها.»

لم تستطع تشارلي أن تكتم رنة الغضب في صوتها وهي تقول: «لقد تأخرت كثيراً.» ولكنها ندمت لما قالته حالما أفلتت الكلمات من شفتيها، وذلك حينما رأت وجه بول يشحب من الغضب. وسألها بحدة: «لماذا؟ هل ماتت؟»

فكرت تشارلي في نفسها إن من لا يعرف حقيقته يظن

أنها ذات أهمية حقاً لديه، ولكنها هي تعلم كل شيء. إذ طالما أمضت الساعات مع الآنسة إميلي ماكنزي تستمع إلى أحاديثها عنه إذ كان عزيزاً عليها جداً. وكانت تعدد لها كل جائزة تلقاها، وكيف سافر إلى ما وراء البحار، مرسلاً إليها بطاقات من كل انحاء العالم، إنما نادراً ما كان يرسل رسائل كاملة وهذا كان يعني لها الكثير. فقط بعض الملاحظات يخطها بسرعة... حتى هذه قطعها عنها في المدة الأخيرة. وسادت القسوة ملامح تشارلي وهي تتنكر كل هذا رغم جهودها في تمالك مشاعرها، ولكن الازدراء بان على شفتيها وهي تقول:

«كلا. انها لم تمت.» وكان صوتها ينضح بالغضب والاشمئزاز اللذين كانت تشعر بهما. ذلك أنها، في مناسبات كثيرة في الأشهر الماضية، كانت ترى وجه إميلي ماكنزي يشرق كلما سمعت وقع خطوات ساعي البريد، لتغمرها، بعد ذلك، خيبة أمل عميقة إذ تدرك أن حفيد أخيها الحبيب ما زال يهملها. وتابعت تقول: «ولكنها ما زالت مريضة جداً كما كانت في الثلاثة أشهر الأخيرة.» قالت ذلك بحدة ودمها يغلي من الغضب. وكان قد سمح لها عدة مرات فقط بزيارة مخدومتها العجوز بينما كانت هذه تكافح للشفاء من النوبة التي انتابتها والتي كادت تقتلها ولم تكن هي لتحتمل النظر إلى تينك العينين الزرقاوين الباهتتين وهما تمتلئان بالدمع عندما لا تجد هي مناصاً من الاعتراف بعدم تلقي اجوبة رسائلها التي كانت قد ارسلتها تخبر بها بول ساريزن عن مرض عمته.

لقد أرسلت إلى هذا الرجل خمس رسائل، اثنتين منها إلى

عنوان منزله في لندن. والبقية بواسطة مكتب الصحيفة التي يعمل فيها. وبهذه الطريقة، استطاعت تشارلي أن تضمن وصول الرسائل إلى أية جهة في العالم يكون هو فيها ولم يدركها اليأس من تلقي جواب منه إلا بعد الرسالة الأخيرة التي لم يجب عليها حتى ببطاقة أو باقة ورود تصل إلى جانب سرير إميلي ماكنزي، معترفة بأن ما سبق وقاله برايان كان صحيحاً وهو إن بول ساريزن لا يهتم مثقال ذرة بحب عمته له، مهما كان مقدار هذا الحب.

قال ساريزن بصوت يشوبه الغضب والبرود: «وما شأنك أنت بهذا؟»

تراجعت هي خطوة إلى الخلف وقد جف حلقها. بينما تابع هو قائلاً: «لم هذا التدخل في شؤون الآخرين، وأمورهم التي لا تخصك، بينما لم أعرف بعد اسمك ولا طبيعة عملك هنا؟»

قالت: «اسمي تشارل... تشارلي.»

كانت على وشك أن تقول تشارلوت، ولكن الخوف الذي سبق وتملكها، قبل الآن، من أن يعرف هذا الرجل الخطر أنها فتاة، هذا الخوف عاد إليها لتتمسك باللقب الذي يطلقه عليها الجميع ما عدا عمتها والآنسة إميلي اللتين كانتا تدعوانها باسمها الكامل، وتابعت تشير إلى الصبي: «وهذا تومي نيوتن.»

قال: «وماذا تفعلان هنا، يا تشارلي نيوتن؟

أجابت: «لا... لا شيء.»

أنستها الخطوات الثلاث التي خطاها نحوها، حقيقة أنه ظن أنهما اخوان وأن اسمهما واحد هو نيوتن. وقالت

والكلمات تخرج من فمها بشبه حشرجة: «لقد كنا... كنا نتنزه، ثم...»

أكمل كلامها قائلاً: «ولأنكما تعلمان أن الآنسة ماكنزي في المستشفى، فقد جئتما لتسرقا البيض.»

فقالت وهي تنكر التهمة بعنف: «كلا... لم نكن نقوم بمثل هذا الـ...»

لكنه لم يسمح لها بأن تنهي كلامها، فقال: «ان وجودي هنا لا بد أفسد عليكما هذه اللعبة. حسناً، اعلما ان ايامكما التي كنتما تسرقان فيها البيض قد انتهت. ربما كانت الآنسة ماكنزي في المستشفى، ولكن هذا لا يعني أن تكون املاكها مباحة للصوص الصغار امثالكما.»

قالت محاولة الاحتجاج: «اسمع الآن...»

لكنه قاطعها بعجرفة: «كلا، بل اسمعا انتما. مادامت عمتي في المستشفى فانا المسؤول هنا، وأنا انذركما بانكما ستندمان إذا ما وجدت مرة أخرى أياً منكما في ارضي هذه.»

قالت دون أن تبالي بسماعه لها: «لن يكون ندمنا أكثر مما هو الآن.»

لقد كانت كلماته تحرقها، وكذلك عجرفته وهو يقول (أرضي) مما اضافت وقوداً إلى نار غضبها.

قال: «والآن، اخرجا من هنا.»

قالت: «آه، اننا ذاهبان.»

أمسكت تشارلي بيد توم وسارت خطوات نحو الطريق وهي تعلم أن أية كلمة أخرى منها ستزيد الأمر سوءاً رغم تحرقها إلى أن تخبر هذا الرجل القاسي القلب رأيها فيه.

وكانت تدير بظهرها إلى السياج الذي يحيط بأرض مخدومتها، عندما تراءى لها وجه هذه كما رأته لآخر مرة، شاحباً نحيلاً ممتقعاً لا يكاد يختلف عن الوسادة التي كان رأسها ملقى عليها، وغلى دمها من الغضب مما جعلها تتخلى عن الحذر، فعادت تحوم حول المكان مرة أخرى قائلة له:

«لكنني أريد ان اخبرك شيئاً، أيها السيد، انني المسؤولة هنا. انها ليست أرضك يا ساريزن ولن تكون أبداً إذا كان ثمة عدالة في هذا العالم. انك لست ابن الأخ الوحيد عندها. فهناك برايان مرتون أيضاً. وهو، في رأيي، له نفس الحق الذي لك أنت، إن لم يكن أكثر، بالنسبة إلى املاك عمتك.»

لاحظت أن كلامها لم يعجبه. وتملكتها موجة من الخوف وهي ترى برود الثلج في عينيه وقد ازداد تقلص وجهه. كما أن الغضب جعل وجهه وكأنما قد من الصوان. وتذكرت ما قاله برايان مرة عن الكراهية المتبادلة بينه وبين ابن خالته هذا، ولكن نظرتها إلى وجه بول ساريزن جعلتها تدرك انه لم يقدر هذا الأمر تماماً.

وكان المنطق والحذر يتطلبان من تشارلي أن تسكت مكتفية بما قالته، ولكن حدة طبعها جعلتها تفقد اعصابها فلم تستطع مقاومة رغبتها في ان تلقى في وجه الرجل الغاضب أمامها بآخر ما في جعبتها، فتابعت قائلة: «كان عليك أن تفكر في آمالك في الارث قبل أن تهجر عمتك بهذا الشكل. وأنا متأكدة من انك ستدرك فداحة غلطتك هذه عندما ترى عمتك وقد فضلت عليك أقرباءها الأقل أنانية منك.»

لم تنتظر لترى نتيجة هجومها الأخير هذا، إذ أنها

تذكرت أخيراً مسؤوليتها عن سلامة توم، هذا إضافة إلى سلامتها هي. وهكذا قررت أنها قالت ما يزيد عن الكفاية فقبضت على يد ابن عمتها الصغير، وانطلقا معاً دون أن تكلف نفسها عناء القاء نظرة خلفها على حفيد أخ اميلي ماكنزي الكريه ذاك والذي حدثت نفسها بأنه سيبقى في ذاكرتها ابداً كأحد ابغض الأشخاص الذين قابلتهم، إلى نفسها، ولحسن الحظ انه قد جاء فقط لقضاء زيارة قصيرة كقضاء واجب ليس إلا، آملة أن يذهب اليوم بعد الظهر إلى المستشفى لاثبات وجوده، ثم يخرج عند انقضاء موعد الزيارة إلى حيث لن ترى وجهه مرة أخرى، ذلك أن مقابلة واحدة لبول ساريزن هي أكثر من كافية بالنسبة إليها.

الفصل الثاني

«ها أنذا. أخيراً في البيت.»

ألقت تشارلي بالأكياس التي عادت بها من السوق على أرض القاعة، ثم تنهدت بارتياح. ونظرت حولها بشيء من الدهشة بعدما لم يجب أحد حين نادت: «أمي، هل ثمة أحد هنا؟»

أجابت نفسها، لا أحد، كانت تعرف أن والدها ليس في المنزل الآن وانه، عادة، يكون على ضفاف النهر في هذا الوقت، مشغولاً برسم آخر لوحة له. ولكن أمها لم تذكر شيئاً عن رغبتها في الخروج، بل كانت، في الواقع، مصممة على البقاء لكي كمية كبيرة من الملابس والملاءات. وقد رأت أن أمها قد جهزت، فعلاً، المكواة وطاولة الكي لذلك. ولكن، أين تراها ذهبت؟

ونهرت هرين جاءا يتشممان الأكياس التي أحضرتها، بقولها: «ابتعدا، أنتما الاثنان، فليس في الأكياس ما يخصكما. ان طعامكما مازال في السيارة.»

جعلها التفكير في طعام الهررة المعلب، والموضوع في صندوق السيارة، تئن متضايقة. وحدثت نفسها بأن تتناول شيئاً من العصير قبل ان تعود فتحضر ذلك الصندوق. خلعت حذاءها، ثم سارت حافية شاعرة بالسرور لملامسة قدميها الحارتين أرض المطبخ الباردة. وكان نهاراً حاراً غير عادي من شهر أيار، خاصة بعد ساعتين من التجوال في سوق «ليدز» لشراء بعض القماش لصنع ستائر وغطاء سرير

جديد لغرفتها. وبعد ذلك ذهبت لشراء حاجيات البيت مما أرهقها تماماً.

سكبت تشارلي لنفسها كوباً من عصير الليمون، وأوشكت أن تستقر في كرسيها عندما اخترق السكون رنين جرس الباب.

تمتمت ساخطة: «تباً لذلك.»

حاولت ان تتجاهل ذلك الرنين، ولكنها لم تستطع التصرف بهذا الشكل. لقد كان من عادة أبيها أن يتجاهل رنين جرس الباب أو الهاتف حين يكون مستغرقاً في عمله، ولكن مثل هذا السلوك كان مستحيلاً بالنسبة إلى تشارلي. وفي الحالات النادرة التي لم تحب فيها رنين جرس الهاتف، كانت تمضي ساعتين بعدها وقد انتابها قلق هائل من احتمال ان يكون مكروه قد حدث لأحد والديها أو لتوم، وهذا جعلها تصمم على الا تفعل ذلك مرة أخرى. وهكذا، تنهدت الآن وهي تتوجه نحو الباب لترى القادم، ومازال كوب العصير في يدها.

لكن، ما أن وقعت عيناها على القادم حتى اهتزت يدها فاهتز معها كوب العصير، وساورتها رغبة قوية في أن تصفق الباب في الوجه الذي واجهها. ولم تصدق عينيها وهما تتلاقيان بالعينين الرماديتين لذلك الرجل الذي سبق لتوم أن وصفه بأنه (ابن الأخ الكريه لإميلي ماكنزي).

وسألها بول ساريزن بابتسامة ضايقتها رغم رقتها: «السيدة هارينغتون؟»

أجابت بغلظة: «كلا.» وكان هذا الجواب كل ما في استطاعتها قوله. ذلك أن الصدمة التي انتابتها لرؤيته عقدت لسانها عن الكلام. وتلك الابتسامة التي تختلف إلى حد كبير

عن ملامحه العدائية المتجهمة تلك التي رأتها من قبل، جعلتها تتساءل عما اذا لم يكن هو بول ساريزن وانما ربما أخ توأم له.

لكنها عندما رأته يغضن جبينه قليلاً ناظراً اليها بعينين ضيقتين، راجعت نفسها وقد تنبهت إلى انها، إذا هي استمرت في الحديث معه بمثل هذه الغلظة، فربما تذكره لهجة صوتها بذلك (الغلام) الذي كان قد قابله عند بيت الدجاج منذ يومين. وهكذا، تنحنحت ثم أرغمت نفسها على الكلام بصوت هادىء رقيق: «ان امي في الخارج. ولا أدري متى ستعود.»

إن لهجتها مازالت غير مهذبة ولكنها لم تستطع التصنع في حديثها اكثر من ذلك. ولكن ربما كان هذا هو الأفضل إذ المفروض انهما لم يسبق لهما التعارف، وبالتالي عليها ان تكون حذرة نوعاً ما. ومن حسن حظها أن قميصها الوردي وتنورتها الداكنة كانا مختلفين جداً عن ذلك الجينز القذر والكنزة الملطخة بالوحل اللذين كانت ترتديهما منذ يومين. بشعرها البني المجعد حول وجهها، والكحل الخفيف في عينيها، لا بد انها الآن تبدو مختلفة جداً عن ذلك الغلام (تشارلي) الذي رآه من قبل.

قال: «هكذا إذاً.»

ورأت تشارلي أن تغضن جبينه لم يتلاشَ تماماً. وتوترت اعصابها وهي تنتقل في وقفتها متضايقة، من ساق إلى أخرى.

في لهفتها إلى تبديد أي شك قد يكون بقي في نفسه نحوها، قالت: «هل ثمة أمر هام؟» ثم أسرعت تقول دون

تفكير. «أعني... إنني متأكدة من أنها لن تتأخر، فإذا شئت ان تنتظرها في الداخل...» والآن ما الذي جعلها تقول هذا في الوقت الذي كان آخر ما توده هو أن تجري مع هذا الانسان حديثاً مهذباً إلى حين عودة امها التي لا تدري في الواقع، إلى اين ذهبت وقد يستمر غيابها ساعات؟ ولكن، الوقت قد فات وليس في امكانها سحب الدعوة، خاصة بعد أن أومأ بول ساريزن بالايجاب قائلاً: «أشكرك، ويسرني ان اجلس فترة.»

خطا إلى الداخل فلم يعد أمام تشارلي الا ان تتنحى جانباً لكي تسمح له بالمرور. وفكرت بضيق وهي تلتصق بجانب المدخل لكي تستطيع المرور في ذلك الممر الضيق دون ان يحتك بها، فكرت في أنه لم يكن يبدو بهذه الضخامة من قبل. ولا بد أن سقف بيتهم المنخفض جعله يبدو أطول مما بدا عليه في الخارج.

قالت له وهي تفتح أقرب باب إليها: «من هنا.» وتنفست بارتياح وهو يدخل غرفة الجلوس، وسألته: «أتريد كوباً من عصير الليمون؟»

عجبت للاضطراب المفاجىء الذي طرأ عليها عندما أصبح قريباً منها. وزاد في اضطرابها وهي ترى انعكاس ذلك على صوتها الذي ساده الارتباك إلى درجة ملحوظة.

أجاب هو: «أرحب بذلك إذا لم يكن فيه ازعاج.»

قالت بسرعة: «ليس فيه أي ازعاج.» والحقيقة انها شعرت بالسرور للابتعاد عنه لفترة.

وفي المطبخ، شعرت بضرورة تمالك نفسها امامه. لماذا تدع ذلك الرجل يؤثر عليها بهذا الشكل؟ انها لا تشعر نحوه

بأية مودة، هذا صحيح. ذلك ان اهماله لعمته ثم عطرسته التي بدت منه أمس قد أكدا أن وصف شعورها نحوه بعدم المودة لايفي مبلغ ما تشعر نحوه حقيقة، ولكن ايمكن ان يكون هذا سبباً لكي تشعر الآن بنفسها متهالكة عديمة القوة؟ انها لم تشعر بمثل ما تشعر به الآن عندما كانت تواجهه منتقدة امام بيت الدجاج، قبل أمس.

اعترفت تشارلي لنفسها بأن سبب هذا الشعور الآن، ربما كان اهتزاز يدها الذي جعل العصير يندلق على المائدة. وبعد انتقادها المتهور له، خصوصاً ذلك التعليق الساخر المهين الذي القته به قبل ان تتركه، في ذلك الوقت. لم تتوقع أن يفكر فيها بول ساريزن دون ان يشعر نحوها بالكراهية والغضب. وكانت الخشية تتملكها من وجودها بمفردها في هذا المنزل مع شخص بمثل قوته وجبروته في حال اكتشافه شخصيتها الحقيقية. وبعثت هذه الأفكار قشعريرة باردة في جسدها، وجاهدت لكي تحملها ساقاها وهي تعود إلى غرفة الجلوس بالعصير، حيث وجدته واقفاً يتأمل رسوماً بالألوان المائية على الجدار، وظهره اليها.

عندما دخلت الغرفة استدار اليها قائلاً: هل هذه الرسوم من صنعك؟»

أجابت: «كلا، بل هي من صنع ابي.» وجعلت أفكارها المضطربة، الكلمات تصدر عنها مهتزة وهي تلهث وكأنها ركضت نصف ميل، وليست آتية من مجرد ممر قصير. وأشارت بيدها الثانية إلى رسوم فوق. رف مدفأة قديمة، وهي تتابع. «وهذه الرسوم أيضاً.»

سألها: «وهل هو يرسم دوماً اشكال الحياة في البراري؟» وكان بول الآن قد ابتدأ يتأمل صوراً لقنافذ وقوارض محاطة بأزهار برية.

قالت: «هذه أفضل اعماله إذ انها تعني، ان في امكانه شرح الكتب التي تتحدث عن الطبيعة وكذلك قصص الأطفال.»

قال: «انها جيدة تماماً. هل هو ناجح في عمله هذا؟»

قالت وقد سرها قليلاً اعجابه هذا: «ليس كثيراً.» ولم تستطع ان تكبت ضحكة أسف. ذلك ان كلمة ناجح لم تكن لتنطبق على أبيها الذي تحبه بالرغم من الفوضى وعدم التدبير اللذين يتميز بهما.

قال: «هذا غريب. لقد ظننت أن ثمة سوقاً طيبة تتلقى مثل هذا العمل الممتاز. فهي تحوي، إلى رقتها، قوة كامنة. إنها حيوانات حقيقية، وليست مجرد مخلوقات خرافية جميلة.»

نسيت تشارلي، للحظة، خصومتها له، إذ افعمت نفسها سروراً لإعجابه وتقديره لأعمال أبيها. لقد أحبت دوماً أعمال والدها جيري هارينغتون وسرها ان تجد من يشاركها شعورها هذا.

قالت ببطء: «يمكنه أن يلاقي نجاحاً واسعاً، ولكنه لا يحاول ما فيه الكفاية. فالكفاح ليس من طبعه. انه ليس رجل اعمال. انه يريد فقط ان يعيش بهدوء مستمتعاً بحياة الريف التي يعشق. فهو يشعر بالسعادة اذا حصل على ما يكفيه للاستمرار.»

قال: «وهل يحصل على ما يكفي؟ أعني...» وألقى نظرة متأملة في أنحاء الغرفة، لتستقر على الأثاث المكون من ثلاث قطع رثة، وسجادة بالية وستائر باهتة، مما جعل

العداوة السابقة تعود اليها بكل زخمها فيتملكها الغيظ. ربما هو يجد كل شيء هنا مختلفاً عن شقته في لندن، ولكنه، بالنسبة اليها، منزلها.

قالت باقتضاب: «إننا نتدبر أمرنا.» ثم انتبهت إلى انها مازالت تحمل كوبي العصير في يدها. فقدمت إليه كوبه بيد مهتزة وهي تقول: «تفضل.»

مرة أخرى، لم تستطع ان تزيل الجفاء من نبرات صوتها، وخفق قلبها وهي تلحظ تقطيباً بسيطاً في جبينه، وقد بان ظل من التساؤل في تينك العينين الرماديتين. وعاودها ذلك الشعور غير العقلاني والحساسية البالغة اللذان احست بهما سابقاً. ودفعها توتر اعصابها فجأة، إلى القيام بحركة لتصحيح امساك اصابعها بالكوب لكي لا تحتك يدها بيده عندما يتناوله منها. لقد ساورها خاطر جنوني هو ان أي اتصال بينهما ربما يجرحها.. وكأنما سيحرق جلده جلدها.

قال: «إنني لم اكن اعني أي انتقاد بكلامي ذاك.» وكان قد تناول منها الكوب دون ان يبتعد، فكان ان شعرت وكأن قربه منها، كما سبق وحدث في القاعة، هو قوة جبارة استقرت على كتفيها تضغطها إلى أسفل.

تابع كلامه قائلاً بصوت منخفض واثق: «بل بالعكس، فأنا أعرف ما يحدث من مشكلات لمن يعمل لأجل نفسه دون سلاح.»

وقالت: «أوه، أتعرف حقاً ذلك؟» ومنعت نفسها بصعوبة من اظهار الازدراء لقوله هذا، فهي تعرف ان ليس ثمة صلة ملموسة بين الحياة التي ينتمي اليها بول ساريزن والحافلة بالتنافس والتهجم والانفاق على مستوى عالمي، وبين

حياة أبيها ونوع عمله الهادىء الشاعري. لقد كانت اميلي ماكنزي دائمة التحدث عن عمل ابن اخيها هذا. مما جعل لاسمه نوعاً من الاثارة. فهو قد اختار الحياة الراقية كمراسل من البلاد الاجنبية. وهو لهذا، دائم التنقل من بلد إلى آخر. ومجموعة قصاصات الصحف التي جمعتها عمته من كتاباته يمكن ان تؤلف كتاباً مرموقاً. وعندما كان يتوقف عن السفر، فان حياته الاجتماعية كانت تشغل على الدوام اعمدة المجتمع في الصحف. حسب كل البيانات انه كان يلاحق كل قصة، دون رحمة. ونفس الشيء كان تعامله مع النساء، في حياته. ففي كل صورة له، رأتها هي، كان يبدو مع امرأة مختلفة مما كان يفوق الحصر.

كانت تشارلي تعلم ان اباها الرقيق غير العملي لا يستطيع أبداً ان يعيش في عالم المنافسة هذا الذي يعمل فيه بول ساريزن. إذ انه سيؤكل حياً في الحال، كما لو أنه وقع في بحيرة لسمك القرش، وإذ تذكرت التعبير القاسي المتعالي الذي كان يكسو ملامح بول أمس الأول، غمرها السرور وهي تفكر في مبلغ ولاء أبيها لأسرته. فهو ما كان ليهمل زيارة عمته البالغة الثمانين من عمرها، والجلوس إلى جانب سريرها عندما تكون مريضة، كما فعل هذا الرجل، إذ انه لم يكن ينتظر أن يطلب منه ذلك.

واستطاعت، تشارلي، في الوقت المناسب، ان تغير من لهجتها التهكمية إلى شيء مختلف تماماً. إذ استطاعت ان تجعلها بشكل سؤال، إذ ادركت اخيراً، انها كانت تتصرف كما لو كانت شخصاً يعرف ما يتكلم عنه، وليس شخصاً لا يعرف حتى من يكون هذا الذي يكلمه.

هكذا أجابته قائلة: «آه، أحقا؟»

بدا كما لو كان بول ساريزن قد قرأ أفكارها إذ قال: «انني آسف لأنني لم أقدم نفسي. اسمي بول. بول ساريزن. واميلي ماكنزي هي عمة أمي.»

جاهدت هي في أن لا يبدو على وجهها أكثر من الأدب العادي، ولم تجد بداً من أن تصافح اليد الممدودة إليها. فلو انها رفضتها لكان في هذا من سوء الأدب بحيث كان سيسألها عن سببه. وهذا ما لا يجب ان تخبره به وهي معه وحدها في البيت. ولكنها حاولت ان تجعل هذه المصافحة مختصرة وشكلية بقدر ما تستطيع. ولم تهتم بكونه احتوى يدها بقبضته الدافئة القوية، وهذا في ظروف اخرى، كان يوحي بالثقة. ولكنها، على كل حال، شعرت بقشعريرة تغمر كيانها.

قالت: «هلا جلست، يا سيد ساريزن؟»

عندما سحبت يدها من يده بسرعة، تمنت لو ان اندفاع يدها نحو الكرسي، هي حركة طبيعية وليست ناشئة عن الضيق المفاجيء الذي شعرت به.

قال: «شكراً.»

أهي تصوراتها، ام هو حقاً جلس على الكرسي بحيوية مدهشة، وهو يرتشف العصير بتلذذ ظاهر أكثر مما يستلزمه دفء الجو؟

قال: «انه لذيذ.»

أجابت: «لقد صنعته أمي.» كان تجاوبها معه غامضاً نوعاً ما، ذلك انها ذهلت لحقيقة أنها، لأول مرة، منذ صدمت بزيارته، كانت تجلس قريبة منه، فترى التغيير فيه منذ مقابلتها غير السارة له امس الأول.

لم يعد يبدو مشاكساً كما كان عندما كانت لحيته نابتة... لقد بدا بوجهه الحليق الآن، مختلفاً جداً. بدا ألطف شكلاً بوجه عام، وأكثر أناقة، ولكنه اكثر رجولة في نفس الوقت، بخطوط فكه القوية ووجنيته العاليتين الضامرتين. وقد تلاشت الغطرسة التي لاحظتها في ملامحه أمس الأول. وتوترت أعصابها لذكرى ذلك الجدال، ثم وهي تتذكر الكلمات التي قالتها له والغضب الذي كان يلتهب في عينيه.

كان جلده قد لوحته الشمس ليصبح برونزياً مما يوحي بأنه امضى وقتاً طويلاً يعمل في جو مشمس، وليس عبارة عن اجازة اسبوعين أمضاهما مستلقياً على الشاطيء أو بجانب بحيرة. وهذا أظهر عينيه الرماديتين لامعتين كالفضة في وجهه الداكن. ولكنها، هي تراه الآن في ضوء الشمس المنساب من النافذة، دهشت وهي ترى عينيه المتألقتين تحيط بهما هالة داكنة اسبغت عليهما مظهر الارهاق والاجهاد. وهذا ما لم تلاحظه في المرة السابقة. ربما من تأثير السهر الليلي المستمر، وربما الاسراف في الشراب، وتذكرت ما بدا عليه من سرور وهو يجلس.

تابعت تقول مجبرة نفسها على الحديث خوفاً من ان يمنحه سكوتها الفرصة للتفكير وربما الربط بينها وبين ذلك (الغلام) الذي قابله أمس الأول.

تابعت تقول: «انني أجد عصير الليمون هذا أكثر انعاشاً من أي عصير أبتاعه من الدكان، خاصة في مثل هذا الجو. إنه حار أليس كذلك؟ إنه غير عادي في شهر أيار ـ مايو.»

وقال بابتسامة مفاجئة تعبر عن نوع من خيبة الأمل: «اخشى انني لا أجده كما تقولين.»

هز كتفيه العريضتين تحت قميصه القطني العاجي اللون الذي كان يرتديه فوق سروال جينز اسود اللون. وتابع قائلاً: «ذلك لأنني قادم تواً من حيث كنت أقيم قريباً من خط الاستواء. ولهذا، من المفروض ان اجد هذا الجو على شيء من البرودة.»

قالت: «حقاً؟ أين كنت تعمل؟»

أجاب: «في وسط أميركا. في غواتيمالا إذا شئت الدقة.»

هذا إذن يفسر اسمرار بشرته، وبصراحة، فان تشارلي لم تكن لتستطيع تصور هذا الرجل مستلقياً على الشاطىء في أي مكان. حتى وهو يجلس، كان يبدو أنه يكبت طاقة كبرى، ومن قصص عمته عنه، كان يبدو وكأنه مولد بشري للطاقة. ونظرت إليه الآن، وهو يجلس متوتراً متصلب الجسم مستقيمه، وعيناه اللامعتان مسمرتان على وجهها، هذه النظرة أنبأتها أنها لا يمكن ان تتصوره مسترخياً أو هادئاً في أي مكان، وأرسلت هذه التصورات القشعريرة في جسدها.

كذلك، من الممكن أن يفسر وجوده في غواتيمالا البطء في تجاوبه مع الرسائل، على الأقل الرسالة الأولى. لقد اعترفت تشارلي بهذا، وتساءلت عما إذا كان عليها ان تعدل من حكمها على هذا الرجل. ثم ان اميلي ماكنزي تحبه جداً، وهذه المرأة العجوز ليست بالحمقاء. ولكن، كلا، حتى مع عدم انتظام البريد في بلاد وسط اميركا، فان الرسالة الثانية التي ارسلتها إليه، قد حوّلت إليه منذ شهرين. وكذلك الرسائل التي كانت قد أرسلت عن طريق رئيس تحرير

الصحيفة التي يعمل فيها. ومن المؤكد انه، وهو المراسل، على اتصال دائم بالصحيفة. فأخبار مرض عمته لا بد وصلته منذ مدة طويلة.

واخترق مجرى أفكارها سؤال منه حاد مفاجىء يقول: «هل سبق وتقابلنا في مكان ما؟»

قفز قلبها وصورته الداكنة التي عرفتها امس الأول تعود إلى مخيلتها فتشيع الاضطراب في كيانها.

قالت بحذر: «لا أظن ذلك محتملاً.» ومنعتها نزاهتها من أن تنفي ذلك تماماً، مهما بعث ذلك من الراحة في نفسها، وتابعت تقول: «لقد كنت أنت بعيداً عن البلاد مدة طويلة، وأنا لم ألتحق بخدمة عمتك إلا منذ تسعة أشهر. كما أن والدي انتقلا إلى هذه القرية قبل ذلك بسنة فقط.»

وفكرت في انتقالهما إلى هذه القرية على أمل الاقلال من النفقات والتمكن من العيش بذلك الدخل غير المنتظم الذي كان يحصله أبوها. فقد كانت النقود دوماً قليلة في أيديهما. وعندما جاءت هي إلى البيت، أخذت تبحث باستماتة، عن عمل تستطيع معه أن تساهم في استقرار الاسرة مادياً. وكان طلب اميلي ماكنزي لها للعمل عندها، فرصة نادرة في هذه المنطقة القروية التي تندر فيها الوظائف. وتابعت تقول: «إلا اذا كنت، بالطبع، في «ليدن» في خلال الاربع سنوات الماضية. فقد كنت أعمل وأعيش هناك...» وتوقفت عن الحديث بسرعة فقد جعل توترها العصبي لسانها ينطلق. وإذا هي لم تكن حذرة، فستخبره بأمور شخصية كانت تفضل الاحتفاظ بها لنفسها، وعلى كل حال، فقد كانت تشك في اهتمامه بأمورها هذه.

لكن لم يبد عليه الاستماع. فقد أخذ يفكر في ملاحظة قالتها هي، أثارت انتباهه.

قال: «قلت إنك تعملين عند عمتي، فهل أنت التي كنت تكتبين إلي تلك الرسائل موقعة بحرفي (ش - هارينغتون)؟»

لاحظت تشارلي أنه يقول (رسائل) وهذا يعني أنه تلقى أكثر من رسالة واحدة. وهكذا عاد رأيها في بول، الذي كان قد ارتفع عدة درجات، ليسقط إلى الصفر مرة أخرى.

أجابت: «إنها أنا.»

كان من المستحيل ان تلغي لهجة الاستهجان من صوتها. فهو، على كل حال، الوحيد الذي يعلم ما كان في هذه الرسائل. وعندما كتبت الرسالة الثانية لم يكن أحد يتوقع أن تعيش اميلي ماكنزي أكثر من أسبوع. وقالت الممرضات انها كانت تتمتم على الدوام باسم إبن أخيها، رغم أنها كانت بغير كامل وعيها. وبعد أن أرسلت تشارلي رسالتها الثانية، تحسنت حال السيدة العجوز، رغم أنها بقيت مريضة جداً. وحتى تجلب شيئاً من السعادة إلى نفس مخدومتها التي أصبحت بمثابة صديقة لها، حاولت تشارلي أن تؤكد، في رسائلها على مشاعر الشوق والحاجة التي لم يكن في استطاعة عمتها ان تعبر عنها.

قال: «إذاً، فأنت هي شارلوت تلك.»

كان التغير في ملامح بول ساريزن، وهو يقطب جبينه ناظراً إليها بعينين ضيقتين، قد أنذرها بأنه شعر بعدائها في لهجتها، ولم يعجبه ذلك منها أبداً. وأكثر من ذلك كان هناك الشعور المزعج وراء تقطيبته تلك والنظرة الباردة في عينيه. وجف حلق تشارلي من الخوف وهي ترى التبدل

الذي طرأ على ملامحه من الاهتمام المؤدب، إلى الغضب البارد، لا يتحكم فيه سوى تصميم قاس غير انساني. وكان الشرر في عينيه يكشف ما شعر به وجعله يضع كوبه الفارغ على الطاولة بعنف وهو يقول: «ما الذي تأخذينه عليّ بالضبط؟»

أذهل هذا تشارلي التي كانت تتوقع شيئاً غير هذا تماماً، فقالت: «لا أدري ماذا تقصد؟»

قالت ذلك محاولة جهدها أن تبدي البرود في صوتها مظهرة عدم الاهتمام، برفعها كوبها إلى فمها ولكنها أدركت أن عدم ثبات يدها يكشف أشياء لا تريدها أن تظهر.

قال هو: «بل أنت تعرفين.» انه لم يرفع صوته ولكنه كان من العنف بحيث جعلها تجفل في مقعدها وكأن كلماته هذه كانت صفعة حقيقية على وجهها. وحاولت مرة أخرى ان تتكلم، فقالت: «يا سيد ساريزن...»

لكنه لم يسمح لها بمتابعة كلامها، إذ قال: «منذ اللحظة التي فتحت الباب، بدا عليك وكأنك رأيت أفعى على العتبة. كما بدا عليك انك تجاهدين في سبيل اخفاء عدائك لي...»

قاطعته قائلة: «حقاً يا سيد ساريزن؟ أظن الشمس قد أثرت على دماغك حين كنت تعمل في تلك البلاد مما جعلك ترى أشياء غير موجودة.»

لم يكن امامها سوى التمسك بكبريائها وهي تضفي الازدراء على لهجتها.

قال بحدة وهو يقف على قدميه: «بالعكس، يا آنسة هارينغتون، فأنا أرى الأشياء بوضوح تام. فأنا أعرف العداوة حين رؤيتها. وهي مكتوبة على وجهك، وفي عينيك

وفي ابتسامتك الزائفة ولهجتك حين تتحدثين وكما قلت اننا لم نجتمع قط من قبل، فانني افترض...»

وسكت برهة، وانقبض قلب تشارلي وهي ترى التعبير في ملامحه يتغير مرة أخرى حتى انها استطاعت تقريباً، ان تقرأ ما راوده من أفكار ليصل إلى نتيجة هذا التفكير بقوله: «إلا إذا كنا، طبعاً، قد تقابلنا من قبل.»

أخذت عيناه تتفحصان وجهها لتتنقلا بين فمها وعينيها الخائفتين وشعرها، قبل أن يركز بدقة على جسمها وتفاصيله مما جعل تشارلي تتحرك بضيق في مقعدها وكأنما كانت نظراته تخدش اعصابها. وجف حلقها ولم تجد طريقة تمنع بها مجرى أفكاره من التقدم. كان ذهنها صفحة بيضاء خالية من أية فكرة.

قال: «يا آنسة هارينغتون...»

ولعقت شفتيها، وهيأت أعصابها لتلقي السؤال الذي كانت تعلم أنه قادم. ولكن، في هذه اللحظة، قطع عليه كلامه صوت الباب الأمامي يفتح، ليسمعا وقع خطوات، ثم صوت أمها ينادي كما نادت هي من قبل: «هل ثمة أحد هنا؟ تشارلي... ها أنذا قد رجعت.»

وبنظرة سريعة مذعورة إلى وجه بول ساريزن، علمت، دون أدنى شك من ملامحه أنه وصل أخيراً، إلى حل للعقدة التي طال تفكيره فيها، فكان غضبه فائق الحد.

الفصل الثالث

«تشارلي»... وكرر بول ساريزن الاسم بابتسامة راضية، وتابع: «ش. هارينغتون، شارلوت، حبيبة عمتي... تشارلي.»

وأجفلت تشارلي للهجته الجديدة، والمختلفة جداً التي بدت في صوته، والتي جعلت من اسمها تهمة وايذاناً بتصميمه على أنه لن يتهاون مع هذا الأمر. وتقبضت يداها على ذراعي المقعد وهي تجيب أمها بارتباك: «انني هنا.. وثمة زائر عندنا.»

انه طبعاً، لن يقول شيئاً في حضور أمها، ولو ان لمعان عينيه المخيف كان ينبىء أنه قد لا يكون إلى هذا الحد من التهذيب.

اطلت قال هارينغتون من الباب وهي تقول: «مرحباً يا عزيزتي... آه، مرحباً.»

شعرت تشارلي بالارتياح وهي ترى خطأ ظنها السابق بعدما رأت بول يهب واقفاً بمنتهى الكياسة، مبتلعاً غضبه ليحل مكانه ابتسامة دافئة بسرعة يستحق عليها جائزة الأوسكار. ابتسامة ما كانت لتشك في مبلغ صدقها لو لم تكن قد رأت، قبل لحظة، ملامحه الغاضبة القاسية.

قال بول: «مساء الخير يا سيدة هارينغتون.»

دهشت تشارلي للسهولة التي تلاشى فيها الغضب من صوته. ليحل محله الدفء. وتابع هو: «اسمي بول ساريزن. وقد اتصلت بك هاتفياً من قبل.»

فكرت تشارلي بدهشة، متى، يا ترى، اتصل بأمها، ولماذا؟

قالت الأم وهي تحاول التذكر: «ساريزن؟» وفكرت تشارلي في طبيعة أمها هذه، وهي تدخل الغرفة عاقدة جبينها ويدها تسوي خصلة من شعرها نزلت على جبهتها. لقد عاشت فاليري هارينغتون حياتها بشكل فوضوي على الدوام إلى حد جعل اعصاب ابنتها على شفا الانهيار.

أخيراً، تذكرت فقالت: «آه، نعم، لقد طلبت إليك الآنسة إميلي ماكنزي الاتصال بي.» وهنا، لم تستطع تشارلي مقاومة فضولها فسألته: «الآنسة ماكنزي؟ وهل رأيت عمتك؟»

وعندما التفت بول ساريزن ناحيتها، وقد لمع الخطر في عينيه، اعترفت تشارلي لنفسها بأنها اخطأت في تضمين سؤالها معنى الارتياب وعدم التصديق، مكذبة نفسها لمحاولتها السابقة انكار عدائها واتهامها له.

أجابها بصوت كالفولاذ: «نعم، يا آنسة هارينغتون. لقد رأيت عمتي أمس... فهي السبب الرئيسي لحضوري إلى هنا.»

كان في كلمته (الرئيسي) نوع من الوعيد لم تجد تشارلي له تفسيراً، ولعلها لم تشأ أن تكتشف ما يكمن وراءه.

قالت الأم محاولة تهدئة الوضع المتوتر الذي لاحظته بين ابنتها وهذا الزائر، والذي، لا شك، قد اثار حيرتها: «أظنك تفكر في قضاء بعض الوقت هنا.»

استدار وهو يجيبها وقد عادت الابتسامة إلى شفتيه مما لطف من قلقها: «هذا صحيح. لقد طلبت مني عمتي البقاء فترة.»

قالت الأم: «ولأنك اكتفيت من تعريض نفسك للشمس الاستوائية، فإنك تريد الترفيه عن نفسك هنا الآن.»

شعرت تشارلي بالضيق والاشمئزاز، ولم تشأ، ولو هذه

المرة فقط، أن تكبت انفعالاتها، إذ لا فائدة من ذلك على كل حال بعد أن عرفت أن بول اكتشف، منذ البداية، أنها إنما تتصنع التهذيب، فقالت: «لقد جاء تصرف ابن الأخ الوفي، متأخراً بعض الشيء.»

هتفت الأم باستياء: «تشارلي! ليست هذه طريقة سليمة للتحدث مع ضيف مستأجر.»

انفجرت تشارلي تقاطعها إذ فوجئت بقول أمها هذا: «ماذا؟ هل قلت ضيف مستأجر؟»

لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. وتمنت في سرها ان لا يكون. ذلك أن امها كانت قد اعتادت، خصوصاً أيام الصيف، أن تؤجر غرفة في بيتها للمستأجرين أو، كما كانت تفضل تسميتهم بالضيوف المستأجرين. وذلك لزيادة دخل الأسرة القليل، ولكنهم كانوا، عادة، من السياح المتفرجين على المنطقة، أو العابرين إلى امكنة اخرى، فيمضون الليلة ويتناولون الافطار، ثم يتابعون طريقهم. فهم لا يمضون أبداً وقتاً طويلاً في ذلك الكوخ. وتنقلت أنظار تشارلي بين بول وأمها وقد بان فيها الذهول وهي ترى على شفتيه من امارات السخرية والظفر ما جعل قلبها يهوي بين ضلوعها.

قالت الأم وقد عزز صوتها أسوأ مخاوف تشارلي: «ان السيد ساريزن سيمكث عندنا لفترة. لقد سبق واتصل بنا هاتفياً عندما كنت في الخارج ليسأل عما إذا كان عندي غرفة خالية فطلبت منه أن يزورنا بعد ظهر اليوم. وانني آسفة إذ لم اكن هنا عند وصوله.» ومضت في حديثها له بينما كانت تشارلي تحاول، مذهولة غير مصدقة، أن

تستوعب هذا الحدث الجديد. وكانت أمها تقول: «ولكن الهر «تشيكو» هرب بينما كنت انشر الغسيل، فخفت ان لا يعود، وهكذا خرجت أبحث عنه، وبقيت ألاحقه حول القرية لمدة ساعة أو أكثر حتى كدت أموت من الحر والعطش. لِمَ لا أحضر الشاي فنجلس جميعاً ونتحدث؟»

ما أن اغلق الباب خلف أمها، حتى كانت تشارلي قد تجاوزت نقطة الاحتراس في كلامها، فتحولت تنظر إليه والشر يقدح من عينيها العسليتين وهي تقول ثائرة: «لماذا نحن بالذات؟ لماذا تريد ان تفرض نفسك علينا؟»

قال بول وقد تمالك جأشه: «لقد كنت في حاجة إلى مكان في هذه المنطقة أمكث فيه.» كان يتحدث بشكل منطقي جعل تشارلي تصر اسنانها غيظاً تمنع بذلك الشعور بالغثيان الذي انتابها. وتابع هو قائلاً: «وقد ارشدتني عمتي إميلي إليكم آملة أن تؤجروني غرفة. وبدا هذا حلاً سليماً، وعلى كل، فأنا لم أكن أعلم انك تسكنين هنا.»

لم تعلق هي على جملته الأخيرة، بل قالت: «هناك ثمة فنادق يمكنك النزول فيها.»

أجاب: «انها جميعاً بعيدة عن المستشفى.» وكان لهذا الجواب المقنع فعل الملح في الجرح الحي، فردت عليه قائلة: «لو كنت مكانك لمكثت في منزل العمة.»

كانت بذلك تذكره بكلمته المتعالية، أمس الأول، حين قال ان البيت والأرض هي ملك له، فهو إذاً، كان المفروض فيه أن يراها فرصة سانحة لكي ينصب نفسه سيد المنطقة.

احتل الحنق في عينيه مكان السخرية ليفهمها أنه يعرف تماماً قصدها، وقال: «ان منزل عمتي مقفل لمدة ثلاثة اشهر.»

قالت: «اعلم ذلك.»

كانت هي الوحيدة التي تعلم كم مضى على المنزل من الوقت خالياً من السكان. فقد كانت هي المسؤولة عنه منذ نقلت الآنسة ماكنزي إلى المستشفى. وهي التي كانت تذهب يومياً إلى المنزل للتأكد من ان كل شيء فيه على مايرام. تنظف حوله. وتطلع على البريد. لقد كان عليها ان تفعل شيئاً لكي تشعر بأنها تستحق الراتب الذي تدفعه لها الآنسة ماكنزي رغم انها لم تكن تقبضه كاملاً اثناء مرض مخدومتها هذه.

والتفكير في رحلتها الطويلة يومياً إلى هذا البيت، ذكرها بالأمل الذي كان يراودها، على الدوام، بأن تجد رسالة أو برقية تهدىء من لهفة مخدومتها إلى تلقيها، وكم من المرات تمنت ان تتمكن من أن تخبرها ان ابن بنت اخيها الحبيب هو في طريقه إليها وانها ستراه اخيراً... وكان استياؤها وغضبها من سكوت بول ساريزن يتفاقمان يوماً بعد يوم وهي ترى أنه لم يكلف نفسه حتى عناء الكتابة إلى عمته. وزاد في ذلك الألم الذي كان يبدو على ملامح مخدومتها كلما كان عليها أن تخبرها بما كان يخيب أملها. والآن، بعد ثلاثة اشهر طويلة، جاء أخيراً لتجد ان شخصيته المتعجرفة التي لا تقر بالندم، هي نفسها التي تصورته بها أثناء تلك الأسابيع، إلى حد شعرت معه، تقريباً، بأن مجرد الحديث معه، كفيل بأن يسبب لها صدمة.

قال: «لقد فكرت العمة إميلي أن من الأفضل ان لا اكون وحيداً.»

وبدا أن تغيراً غامضاً في لهجة بول أخفى رنة السخرية

التي سبق وكرهتها هي منه، ولكن، لتعود بعد لحظة، مرة أخرى وهو يتابع: «لقد أثنت على أمك إلى درجة كبيرة قائلة إنها طباخة ممتازة.»

فهمت الآن تشارلي كل شيء، فقالت: «آه، لقد فهمت. انك أحد اولئك الرجال الميئوس منهم الذين يعتقدون أن في تجهيز الطعام لأنفسهم ما ينافي الرجولة. يا للصبي المدلل.» ونطقت بجملتها الأخيرة بتهكم، وهي تتابع: «انه لا يستطيع صنع شيء بنفسه.. إنه في حاجة إلى امرأة لتعتني به.»

لقد زادت سخريتها عن الحد هذه المرة، أنذرتها بذلك عيناه اللامعتان اللتان احالهما الغضب إلى فضة ذائبة. ولكنه مالبث ان تمالك نفسه مرة أخرى وإن يكن بصعوبة اكبر، هذه المرة.

قال: «ظننت أنك ستسرين إذا أنا لم أمكث في بيت عمتي إذ يبدو أنك تطالبين به لأجل ابن خالتي العزيز الغالي عليك برايان.»

كان صوته المتوتر كملامحه، وهو يقول ذلك، يظهر عنف الغضب الكامن في نفسه مما جعل اعصاب تشارلي تتوتر، هي ايضاً، إلى حد يقرب من التشنج.

واهتزت وهي تسمعه يذكر اسم ابن خالته. ما اكثر ما اخبرت به إميلي ماكنزي ابن بنت اخيها في هذه الفترة القصيرة التي امضياها معاً. كانت الآنسة ماكنزي لا تزال مريضة جداً وقد منع الزوار من قضاء وقت طويل معها. ولكن، ربما تخطت الممرضات هذه القاعدة لمعرفتهن بأن هذا الزائر هو غير عادي وأن المريضة كانت دوماً تأمل في رؤيته، وكانت تشعر بالخيبة المرة يومياً على مدى ثلاثة

اشهر، لعدم رؤيته، وتضايقت تشارلي لفكرة ان مخدومتها ربما تكون قد اخبرته بعلاقتها بابن خالته برايان مورتن، هذه العلاقة التي لم تكن هي نفسها متأكدة منها بعد بالنسبة لمشاعرها الخاصة.

وقال لها: «هذا هو السبب إذن في قولك لي، أمس الأول، إن ابن خالتي هو أحق بالبيت مني انا.» وتابع بصوت منخفض ينذر بالشر: «اريد ان اعرف ما الذي تأخذينه ضدّي؟»

أجابت: «أظن الجواب عن ذلك واضح حتى ممن هو بنصف عقل. هل عندك فكرة عن مقدار شوق عمتك إليك؟ وكم كانت تتلهف إلى رسالة منك جواباً لرسائلي على الأقل؟ انها تحبك إلى حدّ لا تتصوره.»

انها لا تستطيع أن تفهم لماذا تحب مخدومتها هذا الرجل إلى هذا الحد. ذلك أن سلوكه يدل على انه لا يستطيع ان يفهم معنى كلمة محبة. فكيف له أن يبادل هو حباً بحب؟

عادت تقول وقد ارتفع صوتها بالغضب والاشمئزاز: «وكانت تظن أنها لن تشفى وأنها ستموت دون ان تراك. هل تعرف ماذا فعل هذا الشعور بها وهي مستلقية وحيدة في سرير المستشفى، تفكر في انك لم تحمل نفسك عناء الكتابة إليها، دع جانباً ارسال زهور، أو محادثتها هاتفياً.»

قال: «انني أعلم ان تصرفي هذا لا بد ان يبدو بهذا الشكل.»

وتملك تشارلي الذعر وهي ترى مبلغ الانزعاج والكرب اللذين ظهرا على وجه بول وهو يقول هذا، هل من الممكن ان يكون ضميره قد تحرك، أخيراً، فبدأ يعذبه؟

وتابع كلامه: «ولكنني شرحت الأمر لعمتي عما حدث في هواتيمالا وإذا هي كانت تقبل...»

ولم تحاول هي أن تخفي رأيها، فقالت: «انك تعرف جيداً أن عمتك تقبل أي كلام فارغ يتعلق بك.» لم تتمالك تشارلي اعصابها وهي تعلم أن تصرفه ذاك قد سبب ثلاثة أشهر من الألم لسيدة عجوز كان الجميع يعرفون انها في طريقها إلى الموت. وهو الآن يعتقد ان في إمكانه العودة إلى مكانه الأول في حياة عمته بمجرد أن يوضح لها الأمر حتى الاعتذار لم يذكره. وتابعت تقول: «انك تحرك عمتك باصبعك الصغير. وإذا شئت الحقيقة، فإنني استغرب إذ أرى كل العطاء من جانبها لك، بينما لا تقدم لها أنت شيئاً بالمقابل.»

إذا كان الذي بدا منه، كما رأت تشارلي، نوعاً من الندم، أو تأنيب الضمير، فقد تلاشى كل ذلك ليبدو عليه الغضب البارد وهو يقول: «وأظنك الخبيرة بكل طبيعة تصرفاتي؟»

شعرت تشارلي بأعصابها تجاري غضبه ذاك بنفس الحدة، لتقول: «لقد اشتغلت عند عمتك مدة تسعة أشهر.»

قاطعها قائلاً: «ومازلت تشتغلين، كما علمت.» كان في لهجته وهو يقول ذلك، نبرة مقيتة حولت معنى جملته البسيطة إلى معنى آخر مزعج ويحمل تهديداً ما.

قالت له: «ماذا تعني بقولك هذا؟»

قال: «ماذا أعني؟»

كان يتصنع البراءة بكل حذر. وتقابلت عيناه الرماديتان اللامعتان بعينيها العسليتين الساخطتين، وهو يتابع قائلاً: «ولماذا عليّ ان اعني شيئاً، يا آنسة هارينغتون، إلا إذا كان الأمر كما يقول المثل، الغطاء يناسب القدر.»

قالت: «إذا كنت تعني واقعي في انني مازلت اعمل...»

قاطعها: «تعملين!» كان تدخله الساخر مصحوباً بضحكة

تهكم لاذع، وتابع: «حسناً إذا كنت تسمينه كذلك، فأنا أكره ان ازيل الغشاوة عن عينيك ولكنني، شخصياً، لو كنت مكانك لما طاوعني ضميري أن آخذ هذا الراتب الضخم من سيدة عجوز في مقابل عمل تافه.»

قالت: «انني اعتني بالبيت.»

قال هازئاً: «ما أضخم هذاالعمل في منزل لا يسكن فيه أحد. الا تظنين أن راتبك كبير بالنسبة إلى وظيفة هي دون مستوى مدبرة منزل؟»

أدركت تشارلي عندئذ ان ما جعله غاضباً بهذا الشكل منها ليس فقط المقابلة التي حدثت بينهما أمس الأول. وشعرت بالذهول ان هذا ايضاً يضاف إلى العداء الذي يشعر به نحوها. ان عملها عند عمته يغيظه. لقد وصل إلى هنا، في الواقع، وهو يضمر لها الكراهية بصفتها سكرتيرة الآنسة ماكنزي ومرافقتها. حسناً إنها تعترف بأنها حين كتبت إليه الرسالة الخامسة طالبة منه الاتصال بعمته، كانت اللباقة تنقص تلك الرسالة، ولكن ثمة شيئاً اكثر من ذلك يبدو انه اعترض على المبلغ الذي يدفع لها. هل تراه يظن ان راتبها سيجعل حصته في الميراث أقل؟

قالت: «انني أكتب لها رسائلها أيضاً.»

لم تكن تشارلي تريد ان تبدو وكأنها تدافع عن نفسها، ولكن يبدو أنه اصاب من نفسها وتراً حساساً. لقد سبق وحاولت اقناع مخدومتها بأن ليس لها أن تستلم راتباً كاملاً لما هو الآن، في الواقع، عمل جزئي ولكن هذا ليس من شانه. وشخصياً وجدت من الدناءة من جانبه، في أول زيارة لعمته بعد أكثر من عام، ان يستجوب عمته تلك عن المبلغ

الذي تدفعه لمديرة المنزل، لقد كان الحق مع برايان حين قال ان بول ساريزن هو مادي طماع لا يتورع عن شيء.

أجابها هو بصوت ناعم لطيف ينضح سخرية كرهتها هي في الحال: «آه، نعم الرسائل.»

علمت هي دون أن يخبرها أحد، أنه كان يتذكر رسالتين جافتين منها. وتابع قائلاً: «لا بد أنها كانت تأخذ الكثير من وقتك. اخبريني، هل تحتاجك عمتي إلى أن تكتبي إلى اناس كثيرين غيري؟»

أجابت: «كلا.» كان عليها ان تعترف بذلك، فقد كان يعرف الجواب على كل حال. ولما شعرت بأنها تحشر في الزاوية دون أي مبرر، استدارت إليه ثائرة، وقد اشتعل غضبها لأن كل ما يقوم به، انما يتعلق بمناقشاتها هي نفسها منذ اسابيع مع عمته عندما احتجت لديها على استمرارها في دفع راتبها كاملاً لقاء عملها السابق كمديرة منزل وسكرتيرة ومرافقة، في حين أنها لم تعد تقوم بكل هذه الأعمال.

قالت: «ولكن الآنسة ماكنزي قالت إن في استطاعتها دفع المبلغ.»

قال: «آه، انني متأكد من أنها قالت ذلك... ولكن، ليس هذا هو الموضوع، أليس كذلك؟»

قالت بحدة وقد حدست بغريزتها، بما يريد ان يقول، ولكنها لم تكن، في الحقيقة، تصدق أنه يعتقد فعلاً بشيء كهذا. قالت: «ما هو الموضوع إذاً؟»

أجاب: «لو أن لديك أي نوع من النزاهة، لما سألت هذا السؤال. انك تسلبين عمتي بالتحايل، يا آنسة هارينغتون،

محاولة ان تبتزي منها قدر استطاعتك بأقل مقابل تقدمينه من ناحيتك.»

تملك تشارلي الغضب ولم تعد تدري ما تقول، فأخذت تقول لاهثة: «لماذا أنت... أنت...» واعوزتها الكلمات المناسبة في مثل هذا الموقف، ثم انفجرت متابعة قولها: «كيف تجرؤ على أن تهينني في منزلي؟ اريدك ان تخرج الآن وتتركني وحدي.»

وما لبثت، وقد فقدت اعصابها تماماً، أن امسكت بذراعيه وأخذت تدفعه نحو الباب.

قال هو بهدوء دون ان تستطيع زحزحته: «آه، ولكن هذا غير ممكن كما ترين. انك نسيت أن هذا المكان قد اصبح بيتي، مؤقتاً على الأقل.»

وإذا وصل الأمر إلى التحدي، فإن في استطاعة تشارلي أن تدعي نفس الشيء. ولما كانت قد نسيت أنه ضيف مستأجر، فقد صدمها التذكير بهذه الحقيقة، فتجمدت في مكانها، ثم أرخت قبضتيها عن ذراعيه كما لو كانتا قد احرقتاها، ولكن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً من ذلك، لأمر ما، لم تشأ أن تواجهها.

إن ما صدمها، وسبب الاضطراب لها، هو أن تجد ان كلمة «الاحتراق» كانت أقرب وصف لما شعرت به، إذ انه في اللحظة التي غرزت فيها أصابعها في عضلات ذراعي بول القويتين، وشعرت بالدفء المنبعث منهما من خلال قميصه القطني، احست بما يشبه الصدمة الكهربائية تشع من أطراف اصابعها إلى كل عصب في جسمها، ليصل إلى قلبها فينتفض هذا بعنف مما جعلها تخشى أن يتوقف عن

الخفقان، لقد ابعدت يديها عنه بسرعة لأنها، مهما حاولت الانكار بينها وبين نفسها، إذا هي اطالت بقاءهما لحظة واحدة لوجدت نفسها تضغط عليهما ولما استطاعت مقاومة التصرف أبعد من ذلك. ودفعها هذا الشعور نحو هذا الرجل الذي تكن له كل تلك المشاعر المقيتة، دفعها إلى الشك بسلامة عقلها.

انها لا تستطيع ان ترى أية جاذبية في هذا الرجل، وعندما حدثها برايان عن ابن خالته هذا، نفرت من الصورة التي اظهره بها رجلاً انانياً قاسي القلب. وشعرت انها لا يمكن ان تحب أي شيء يتعلق ببول ساريزن. ومنذ أن قابلته لأول مرة، بدا ان شكوكها هذه كانت صحيحة، إذ لم تجد ما يغير من نظرتها السيئة إليه. أما ما أحدث ذلك الاندفاع العنيف نحوه... وهزها داخلياً، فقد ارغمت تشارلي نفسها على أن تواجه كلمة «الرغبة» إذ أنها الكلمة الوحيدة التي تفسر ما انتابها من أحاسيس غامضة.

قالت: «انني لا أريدك هنا.»

ولم تهتم لتصرفها الصبياني ولا للهجتها، وفي أعماقها تغلي المشاعر وخوف قوي مما يمكن ان يحدث لو أن هذا الرجل بقي في بيتها ينام، ويستريح في غرفة الجلوس ويتناول الطعام معهم على نفس المائدة... ولم تستطع ان تتمالك نفسها من أن تنتابها رجفة شملت جسمها بأجمعه. لقد كانت الغرفة التي اعتادت أمها ان تؤجرها هي بقرب غرفة تشارلي تماماً.

عادت تقول: «يمكنك أن تجد مكاناً آخر.»

أجاب بجمود واقتضاب: «لم أجد مكاناً آخر.» وشعرت

هي وكأن هذا الجواب دفعها بعنف إلى جدار حجري. واستدارت تواجهه لتذهل وهي تراه يبتسم، ولكنها، بعد لحظة، فكرت في أن (الابتسام) ليس بالشيء المناسب في هذه الظرف. ذلك أن الابتسام يعني الدفء ويبعث على الراحة. ولكن ابتسامته هذه بعثت بمشاعر البرودة في اعماقها، وتصورتها ابتسامة الأفعى قبل أن تلدغ ضحيتها.

قال: «في الحقيقة، أظن أن العمة إميلي معها كل الحق حين قالت إن الاقامة في هذا البيت ستناسبني تماماً، وجعلتني أفهم أن امك ستكون مسرورة بوجودي هنا، لأشياء تتعلق بالأسلاك الكهربائية.»

حدثت تشارلي نفسها بأنها قد ابتدأت تفهم الآن كيف بنى لنفسه تلك السمعة الأسطورية كونه باحثاً محققاً لا يقف في سبيله عائق عندما يلاحق قصة ما، ولم تعرف كيف عرف من أمها هذه المعلومات ولكن، تباً له، فقد كان على حق، لم تكن الأسلاك الكهربائية في الكوخ قديمة جداً، ولكن كان يخشى منها من اندلاع حريق، فيجب، لهذا، استبدال السخان المركزي قبل حلول الشتاء. وكان اليأس يجتاح أمها من العثور على النقود اللازمة للانفاق على ذلك، وكان الايجار الذي سيدفعه بول ساريزن لغرفته، لا يكاد يفي بالتكاليف ولكنه يمكن أن يساعد على ذلك، فالآن، ثمة حاجة قصوى لأي مبلغ مهما كان تافهاً.

ثم خطر في بالها أنه، بالنسبة إلى شخص يسيء الظن فيها دون أي مسوغ، إذا هو اكتشف حاجة أهلها المادية، فسيكون في هذا البرهان الكافي على صحة شكوكه في

أنها تحاول أن تسلب عمته ما تستطيع من نقود وانتابها شعور حيوان وقع في الشرك، فإن أية محاولة منها للنضال أو الشرح لا تفعل اكثر من اثبات الشكوك فيها.

قال: «انني متاكد الآن من أنك قد ادركت أن من الأفضل بقائي هنا.»

كان صوته رقيقاً مقنعاً، ولو كان في ظروف غير هذه لاعتبرته تشارلي مغرياً، ولكنها، في هذا الظرف لم تجد في نفسها أية استجابة له، بل بالعكس شعرت بانه يعمل من اعصابها، نفس عمل ورق الزجاج. ولكن، بعد لحظة واحدة، تبخّر من ذهنها كل أثر للتعصب ضده عندما شعرت بيد كبيرة دافئة تحتضن ذقنها ليرتاح خدها على راحته الواسعة. وببطء ورقة، أدار وجهها إليه يرغم عينيها العسليتين المضطربتين على مقابلة عينيه الرماديتين المتالقتين.

وتمتم برقة: «لا تدعي القلق يستولي عليك، يا شارلوت. من الممكن ان تتحسن الأمور إذا شئت أنت ذلك.»

وبينما جمدت هي وقد سمرتها القوة المغناطيسية المنبعثة من عينيه، حرك هو ابهام يده فوق وجنتها ليلامس فمها، محاولاً أن يخطط به شكل شفتيها، ثم يضغط شفتها السفلى. وشعرت شارلي فجأة، بالنار تلتهب في جسدها، وبالأرض تضطرب تحت قدميها، وزاغت الرؤية أمام عينيها. ولو كان بول قد حاول ان يقبلها، لربما صفعته على وجهه مبتعدة عنه ولكن حركات ابهامه هذه جمدتها في موقفها مستسلمة لدفء اصابعه على وجنتها وذقنها.

همس هو بابتسامة عريضة: «أرأيت؟ يمكننا أن نكون اصدقاء.»

كان هذا كثيراً، إذ افزعتها الفكرة إلى درجة اخرجتها من تلك الغيبوبة التي اسرتها، وجعلتها تنزع نفسها من يده بعنف لا ضرورة له مما أفقدها توازنها فكادت تسقط لولا أنه امسك بها. وكانت قبضته قوية دافئة. وجف فمها فجأة وتصاعدت دقات قلبها حتى شعرت بأنه لا بد قد سمعها.

قالت له بحدة: «لا يمكن لنا، أنا وأنت، أن نكون اصدقاء فقط» وأدركت، بعد فوات الأوان، ما قد تعنيه كلمة «فقط» هذه، فتصاعد الدم إلى وجهها وهي ترى كيف ارتفع حاجباه الأسودان بشكل ساخر وعرفت انه لاحظ ما قالت، هو أيضاً.

تمتم هو: «ما أصدق هذا.» وفي الوقت الذي كانت تشارلي فيه ما زالت مصعوقة لما قالت، انحنى رأسه ذو الشعر الأسود نحوها، قائلاً: «عليّ ان اوافق على أننا لن نكون اصدقاء فقط.» ثم أخذها بين احضانه.

ارتفعت خفقات قلبها، وانقسمت نفسها إلى جزئين، الأول عقلاني يطلب منها أن تدفعه عنها بعيداً، بينما الآخر، وهو الأعمق، ارادها أن تبقى بين ذراعيه وأن هذا بالضبط، ما تريده. ولكن منذ دقائق فقط كانت على استعداد لأن تصفع وجهه هذا لو انه قام بهذا العمل، فما الذي جعلها الآن هادئة مستكينة إلى هذا الشعور البهيج باحتضانه لها؟ لا بد انها جنت، ولا شيء غير هذا. من المستحيل أن تبتهج بهذا العمل.

وتناهى إلى سمعها صوت باب المطبخ يفتح، ثم وقع خطوات أمها في الممر. وساور تشارلي الاضطراب، مع أن ذهنها لم يستطع ان يركز على واقعها وعما يمكن لأمها ان

تفعله لو انها رأتها بين ذراعي بول بهذا الشكل. ولكن بول لم يتملكه مثل اضطرابها هذا، إذ سرعان ما كان يبتعد عنها إلى مسافة عادية. ولما دخلت أمها، حاملة صينية الشاي، كانا يجلسان كأي شخصين محترمين.

واندفع هو واقفاً وهو يقول: «دعيني أساعدك.» ونظرت إليه تشارلي وهو يتناول الصينية من أمها ليضعها على الطاولة. وشعرت بالحيرة... كيف يمكنه ان يتمالك اعصابه هكذا ويبدو طبيعياً وكانما لم يحدث شيء، بينما تشعر هي وكان شخصاً قد ضربها على رأسها بحجر؟ وعدا عن ابتسامة ظفر على جانبي فمه، كان يبدو بارداً هادئاً كما بدا تماماً حين وصوله.. فكيف في إمكانه ذلك؟

هذا سهل تماماً، كان هذا هو الجواب الذي جاءها بسرعة هائلة وبعنف جعلها على وشك ان تطلق شهقة عالية. لقد بعث احتضانه لها ذاك التشوش في ذهنها، وترك في نفسها تأثيراً اكبر كثيراً مما اعترفت به لنفسها. ولكن، يظهر أن بول لم يشعر بشيء، واحتضانه ذاك لها لم يكن يشير إلى أي تأثر منه أو أي شعور آخر عدا الرغبة في الهيمنة والسيطرة عليها نابعة عن الأنانية وعدم الاهتمام. لقد سبق وانذرها برايان عن مبلغ قسوة ابن خالته هذا. وها هي ذي قد جربت بنفسها الآن مناوراته الباردة مما يثبت نظريته تلك.

وهي، في الواقع، قد استجابت له. وهزت تشارلي رأسها وهي تشعر بالحيرة من حماقتها هذه، وأيضاً لكي تبعد عن ذهنها شعورها ذاك بالابتهاج وأسفها لانتهائه. وإذا هي أرادت برهاناً آخر عدا عن كيفية معاملته لعمته، يثبت أن

بول ساريزن هو نوع من الرجال يجب عليها أن تبتعد إلى آخر الدنيا لكي تتجنبه، فقد حصلت على هذا البرهان الآن. وقد كانت هي معتوهة إذ اقتربت منه مستسلمة إلى هجومه القاسي على مشاعرها.

حسناً، لن يحدث هذا مرة أخرى، لقد قررت هذا وهي تمد يدها تتناول كوب الشاي بعد ان افلحت في تمالك مشاعرها، شاكرة امها التي مدت يدها به إليها. إنها لن تكون سانجة بعد الآن.

وسمعت بول يقول: «وهذا ايضاً كعك صنع البيت، انني اعرف الآن كم سأتدلل في هذا البيت معكم.»

وسألته الأم: «كم قررت أن تمكث عندنا، يا سيد ساريزن؟ لقد قلت في الهاتف حوالي اسبوع أو عشرة أيام.»

تمنت تشارلي في سرها، أن يجعل حدة إقامته أقصر، فأسبوع تحتمل فيه بول في منزلها، يكفي، فكيف بثلاثة أيام أخرى؟»

واتكأ بظهره إلى الكرسي وهو يرشف الشاي قائلاً: «نعم، هذا ما كنت قررته في البداية.» كان يبدو مسترخياً تماماً بعكس تشارلي التي كانت تجلس متوترة على ذراع الأريكة. كان في صوته، وفي لمحة صغيرة نحوها، عندما توقف عن الكلام، ما جعلها تشعر أن ما سينطق به الآن، قد لا يعجبها أبداً. قال: «ولكن، منذ تحدثت إلى عمتي، غيرت رأيي في أشياء كثيرة.»

مرة اخرى، استدارت عيناه الرماديتان الفولاذيتان نحو تشارلي لتستقرا، متعمدتين، على وجهها المتوتر، فترة، ثم تابع يقول: «ولما كان لي الحق في إجازات عدة في عملي،

قد تراكمت، فقد فكرت في أن آخذها جميعاً دفعة واحدة ليمكنني البقاء هنا مدة أطول. اتظنين انكم تستطيعون احتمالي مدة شهر؟»

وارادت تشارلي أن تهتف كلا! أبداً لا يمكن هذا، ولكنها لم تستطع أن تنطق بكلمة. لقد كانت تعلم انها لا يمكن ان توضح لأمها سبب انفجارها ذاك، وهكذا جلست صامتة تحدق في السجادة عند قدميها، تستمع إلى أمها وهي توافق بسرور، على طلب بول. وأسوأ ما في الأمر، أنها كانت تشعر غريزياً، بتلك العينين الباردتين مسمرتين عليها، تدرس تعبير ملامحها، مدركة نوع شعورها بالنسبة للوضع.

رأت أمامها توقعات الشهر القادم كامتحان مفزع لقدرتها على الاحتمال، مالئاً إياها باليأس. إذ انها، إذا كان الآن هذا هو شعورها، فكيف سيكون بعد أربعة أسابيع من وجود بول ساريزن معهم يوماً بعد يوم؟ عليها أن تجد طريقة تحتمل بها هذا. أما إذا لم تجد.. وفزعت من تصور ما سيحدث في هذه الحالة.

الفصل الرابع

أوقفت تشارلي سيارتها القديمة المحطمة تحت شجرة سنديان ضخمة، ثم خرجت منها، لتقف لحظة، في شمس شهر أيار ـ مايو ـ المشرقة، متأملة البناء القائم أمامها. كان المنزل النهري عالياً فخماً قد غطت جدرانه النباتات المتسلقة فبدا رائعاً بجماله غير العادي. وكان مقاماً على طريق منحدر متعرج طويل، محاط بالاشجار، مواجه لواد يجري فيه النهر الذي سمي به، والذي كان ينساب بين الحقول.

أثناء التسعة أشهر التي قضتها تشارلي في خدمة الآنسة اميلي ماكنزي نما في قلبها حب بالغ لهذا المنزل يكاد يماثل حب صاحبته العجوز له، فلا عجب أن تشعر الآنسة اميلي، وهي في المستشفى، بكل ذلك الشوق واللهفة إلى العودة إلى منزلها الذي ولدت فيه، وأمضت بين جدرانه كل سنة من سنواتها الثمانين.

لكنها كانت، على الأقل، سائرة في طريق التحسن. وابتسمت تشارلي وهي تفكر في ذلك، ثم فتحت الباب الأمامي لتسير في الممر الرخامي البارد المؤدي إلى القاعة. كانت اميلي ماكنزي تستعيد صحتها. وطبعاً، تحسن صحتها هذا يعود إلى رجوع إبن بنت أخيها الذي كانت تفتقده.

والتوى فم تشارلي بسخرية. إنها، شخصياً، لا تظن أن بول ساريزن قادر على تحقيق هذه المعجزة... مع أنها

اعترفت بأن صحة الآنسة إميلي قد تقدمت للشفاء بشكل ملحوظ في الاسبوع الذي وصل هو فيه إلى بارفورد. وفكرت في انها لو كانت في مكان براين لشعرت بالامتعاض للاطراء الذي يقال الآن لابن خالته، والذي يبعث على الغيظ الشديد. ان برايان نفسه كان على اتصال مستمر منذ ابتداء مرض عمته، فهو يداوم على ارسال الأزهار إليها على الدوام، ويحرص على زيارتها أسبوعياً من المدينة التي يعمل فيها في متجر للتحف القديمة والتي تبعد أكثر من مئة ميل. لقد أبدى تفانياً حقيقياً نحو عمته الكبيرة، بخلاف أنانية إبن خالته وتهاونه نحوها.

لكنها جاءت إلى هنا لتبتعد عن بول ساريزن والتفكير فيه. هذا ما أخذت تشارلي تفكر فيه بحزم وهي تدخل المطبخ وتفتح خزانة أدوات التنظيف. ولوت شفتيها بازدراء، ذلك أن المنزل كان، في الواقع، في غاية النظافة وليس بحاجة إلى المزيد من ذلك، كان كل شيء متألقاً لامعاً بعد أن أمضت الستة أيام الماضية في القدوم يومياً للتنظيف والتلميع. وعندما خطر لها أن اجتهادها هذا ربما كان لتثبت لبول انها تستحق الراتب الكبير الذي تدفعه لها عمته، والذي حمله على الاعتقاد بأنها تستغل وتسلب عمته تلك نقودها، عندما خطر لها ذلك، أبعدته عن ذهنها. انها لا تريد ان يذكرها أحد بواجبها نحو مخدومتها وخاصة هو.

ولكن لا بد لها من الاعتراف بأن وجود بول في بيتها، له علاقة كبيرة بالساعات العديدة التي تمضيها يومياً في المنزل النهري. صحيح انه أخذ يتصرف، طوال الأسبوع،

الماضي، بغاية الأدب والتهذيب، ولكن سبب هذا أن أحد والديها كان دوماً موجوداً، ووجدت تشارلي، في ذلك، نوعاً من التكلف غير المحتمل. وأخذت تتساءل عما يمكن ان يحدث لو أنها كانت وحدها مرة، مع بول.

ومن المدهش أن ذلك لم يحدث قط. وأذهلها أنها لم تجد بول ذلك المتطفل الذي ظنته. فقد كان يمضي أكثر النهار في المستشفى في زيارة عمته. وكان يأتي لتناول وجبات الطعام بانتظام، وعدا ذلك فقد كان وجوده في المنزل قليلاً. وكان أحياناً يجلس في الحديقة يطالع في كتاب وأحياناً أخرى يتبادل الاحاديث المتفرقة مع والديها في الأمسيات، ولكن تشارلي كانت تشعر بالحيرة، والراحة معاً، إذ تراه يصعد إلى فراشه مبكراً، لينزل من غرفته في الصباح متأخراً.

ولكنها جاءت إلى هنا لتعمل. وركزت اهتمامها على ما بين يديها وهي تحمل الممسحة ومنفضة الغبار وعلبة الدهان ثم تقصد غرفة المكتبة. إنها ستنظف اليوم كل الرفوف والكتب، واحداً واحداً، في المكان.

بعد ساعة ونصف، كانت تشارلي قد بدت في غاية القذارة بسروال الجينز والقميص الكحلي الملطخين، عادت إلى المطبخ لتحضر لنفسها كوباً من الشاي كانت تشعر بأنها تستحقه تماماً. وفي انتظار غليان ابريق الشاي، استندت إلى الحوض قرب النافذة تسرح النظر في الحديقة الممتدة خلف المنزل، وهي تقيس حجمها، بشيء من الغبطة، بحجم رقعة الأرض الضئيلة التي تكون حديقة كوخ والديها. وفكرت في أن العشب في هذه الحديقة قد استطال بشكل غير

مستحب، ومن الأفضل أن تطلب من بيت، وهو الرجل الذي يرعى الحديقة، ان يهتم بذلك.

كانت تتناول فنجاناً خزفياً عندما سمعت صوتاً من خلفها يقول: «أريد واحداً لي.»

شق صوت بول سكون المكان فجأة مما جعلها تقفز من مكانها مذعورة، فيسقط الفنجان من يدها المرتعشة إلى الارض ليتهشم إلى قطع تناثرت في أرجاء المكان. واستدارت تنظر إليه ثائرة وهي تقول: «انظر ما جعلتني أفعل.» كانت تغطي انفعالها لرؤيته، باظهار الغضب وهي تتابع قائلة: «ما معنى ان تتسلل إليّ هكذا؟»

أجاب ساخطاً: «إنني لم أتسلل. لقد ناديتك عندما دخلت القاعة، ولكن يبدو انك لم تسمعيني. لا بد ان عندك شعوراً بالذنب جعلك تقفزين بهذا الشكل.»

كان في لهجته شيء من التعنيف وقد لمعت عيناه بسخرية.

قالت: «ان ضميري نقي تماماً مثل ضميرك.» وعندما تذكرت أن ضميره ليس بهذه الصفة، قالت بغيظ: «ناولني تلك الفرشاة ومجرفة الكناسة من فضلك.»

قال وهو يأتي بالفرشاة: «سأقوم أنا بذلك.» وانحنى على ركبتيه يجمع قطع الخزف الصيني في المجرفة وهو يقول: «هل تقومين أنت بصنع القهوة... مع الحليب، يا شارلوت؟»

قالت: «ماذا؟ آه، حسناً.»

عادت تشارلي إلى الواقع، فاستدارت تحضر فنجانين من حيث كانا معلقين على الجدار. لم تكن تعرف ما الذي جرى لها. ولكنها تعرف انها، في اللحظة التي انحنى فيها،

وبالضبط عند قدميها، تصاعدت خفقات قلبها، شعرت بقوة قاهرة تدفعها للمس شعره القاتم، وتحسس خصلاته بأصابعها. كان ذلك الدافع من القوة بحيث ارتفعت يدها متوجهة نحوه، ولكنها أعادتها بعنف عندما ارتفع صوته يقول، دون أن يلتفت إليها، لحسن الحظ، فيرى توهج وجنتيها وعينيها الذاهلتين: «دون سكر، من فضلك.»

وعندما كانت القهوة جاهزة، تمالكت جأشها وجلسا معاً، إلى مائدة المطبخ، ثم قالت:

«ما الذي جعلك تحضر إلى هنا؟ هل طلبت منك الآنسة اميلي احضار شيء ما لها؟ قميص نوم نظيف، مثلاً، أو منشفة؟ إن كل هذا جاهز.»

كان في صوتها نبرة تحد وزهو لكونها توقعت ما تحتاجه مخدومتها، ولم يبق هناك ما يستوجب لومها.

أجاب: «كلا، ليس هذا هو السبب رغم أنني سآخذها لها اليوم على كل حال. لقد كنت فقط في هذه الأنحاء... كنت أراقب المنزل، وأنا أحضر إلى هنا مرة في اليوم على الأقل.»

لم يكن في لهجة بول أي نوع من الانتقاد، ولكن هذا لم يمنع تشارلي من أن تشعر بالغيظ لما يتضمنه كلامه هذا من معنى. لقد كانت وحدها المسؤولة عن حراسة هذا المنزل والعناية به منذ اسابيع. وقد استطاعت ذلك بشكل ممتاز عندما كان هو ما يزال في غواتيمالا ملاحقاً القصص التي تضيف مزيداً من المجد إلى اسمه.

سألته باستياء: «هل تراقب عملي؟»

أجابها متهكماً: «وهل أنا في حاجة إلى ذلك؟»

قالت: «إن الآنسة اميلي أوكلت إلي مسؤولية المنزل.»

قال: «إنني لم أكن هنا ذلك الحين.»

جعلها إصرار بول المتغطرس، تشتعل غيظاً فرفعت فنجانها بعنف إلى شفتيها لتأخذ منه جرعة كبيرة بينما كان لا يزال شديد الحرارة، مما جعلها تشهق بألم وقد تضرج وجهها ارتباكاً.

قالت بصوت خشن: «إنني قادرة على القيام بذلك تماماً.» كانت بذلك ترد على انتقاده، من ناحية، ومن ناحية أخرى لتفسد عليه تدخله للمساعدة. وتابعت قولها: «لقد تدبرت الأمر، من دونك، مدة ثلاثة أشهر قبل ان تتنازل أنت بالحضور!» وكان في صوتها شيء من الحقد وهي تقول ذلك.

لم يتحرك بول إزاء هجومها هذا، وهو يقول: «ولكنك أنت موظفة... فوضعي مختلف تماماً.» وشمل المكان بنظرة المالك صاحب المكان تقريباً. وشعرت شارلوت بأن هذا المنزل هو كل ما يبغيه... المنزل النهري... إرثه المحتمل... هو كل ما يهمه. لقد سبق وقال برايان شيئاً من ذلك مرة حين اشتكت من عدم رده على رسائلها: «انه لن يبقى بعيداً إلى الأبد. وإلا فانه سيخسر شيئاً كثيراً. ربما كان صحافياً حائزاً على جوائز يريد أن يصبح سيداً مالكاً. ولكن عليه ان يكتسب محبة عمته قبل ذلك. وإذا هو فكر في أن مكانه في وصيتها سيكون في خطر، فهو سيكون هنا في لحظة واحدة.»

قطع عليها حبل أفكارها صوت بول يقول: «إنني، قبل كل شيء، من الأسرة.»

أجابت بحدة: «ان برايان من الأسرة هو أيضاً.» لقد كان ذهنها مليئاً بكراهية سعيه إلى المال.

قال ساخراً: «آه، نعم. إبن خالتي العزيز برايان. بالمناسبة، طلبت مني عمتي أن أخبرك انه سيكون هنا في عطلة نهاية الأسبوع هذه. يبدو انها تظن أنك يجب ان تعلمي ذلك.»

أخذت تشارلي تحدق في المائدة المصنوعة من خشب الصنوبر غير قادرة على مواجهة هاتين العينين النافذتين، منتظرة منه زيادة في التعليق عن سبب تفكير عمته في أن تشارلي يجب أن تعلم بزيارة برايان. وعندما لاذ بالصمت، تحركت في كرسيها بضيق. ان التفكير في ما تكتم في صدرها، يخزها كالابر. عليها ان تتحدث إلى برايان عندما يأتي للتفاهم على كل شيء.

عندئذ نظر إليها بول، وشعرت بالضيق لنظراته القوية تلك، فاندفعت تقول دون احتراس: «من الطبيعي ان يأتي برايان. فهو يزور عمته كل اسبوع ويرسل إليها الأزهار...»

قاطعها: «وهذا أكثر مما فعلته أنا...»

صعقها ما لمسته من سخرية مريرة في صوته ان بامكانها ان تفهم التوبة منه ولو أن من الحماقة ان تتوقع ذلك منه، كذلك الغضب أو الكلام الفارغ، عدم الاكتراث... كل هذا ما كان ليدهشها على الأقل، ولكن ما بدر منه، صعقها بشكل غريب. وقالت بحدة: «كما سبق وقلت أنت مرة... إذا ناسب الغطاء القدر...»

قال: «ألا تقلقين أحياناً من الاندفاع بعينين مغمضتين؟» كانت قد تبدلت لهجته الآن إلى السخرية اللاذعة.

فقالت: «لم أفهم؟»

قال: «ألم تفكري مرة في انك ربما لا تكونين بهذا العلو

والمقدرة لكي يكون معك الحق في كل شيء؟ ألا تفكرين أبداً ان من الحكمة ان تفتشي عن الحقائق قبل ان تتهجمي بالادانة الكاملة...» كان الغضب الآن قد تسرب إلى كلمات بول بالرغم من حذره وضبطه لأعصابه.

قاطعته هي: «انني اعرف الحقائق...» كانت تريد أن تريه أن ليس في امكانه ترهيبها. وتابعت: «ثم انني أنا من كان مسؤولاً عن احضارك إلى هنا. ذلك ان الآنسة اميلي، عندما وقعت فريسة المرض، كنت انت أول من سألت عنه... كنت أنت الوحيد الذي أرادت رؤيته...» ودلت لهجتها، بوضوح، إلى انها لا ترى سبباً يدعو إلى ذلك. ورأت الغضب يطل من عينيه. وتابعت تقول.» لقد حاولت الاتصال بك هاتفياً على عنوانك في لندن ولكنني لم أحظ بجواب، فكتبت، عندئذ، رسائل إلى شقتك في لندن، وإلى مكتب الصحيفة التي تعمل فيها. لتعود الينا بعد ثلاثة اشهر متظاهراً وكأنك سمعت بالأمر لتوك. بينما برايان كان هنا في غضون ساعتين.» ونطقت بالجملة الأخيرة بلهجة تأكيد متعمد.

قال: «هذا طبيعي بالنسبة إلى برايان، أما أنا، فقد جئت حالما سمعت بالخبر.» واستغرق استيعابها لهذه الكلمات التي نطق بها بكل هدوء ثوان قليلة، لتتسع بعدها عينا تشارلي وقد رجعت برأسها إلى الخلف بشبه صدمة.

قالت: «انك لا تتوقع مني ان اصدق ذلك. انني أعرف أن البريد في امريكا الوسطى ليس منتظماً...»

قاطعها: «أحياناً تتوقف الخدمات البريدية إلى غواتيمالا.»

قالت بارتياب: «وهل ضاعت الرسائل؟ كلها؟»

سألها: «كم رسالة أرسلت؟»

أجابت: «خمس، بما فيها اثنتان أرسلتا إلى شقتك في لندن.»

قال: «قد تكون هذه وصلت لأنني لم أذهب إلى شقتي منذ عودتي إلى انكلترا.»

كان هذا يعني أنه حال وصوله إلى انكلترا، اتخذ طريقه إلى يوركشاير، وحدثت نفسها بأن هذا عمل لاباس به من ناحيته.

وعاد يقول: «لقد تلقيت رسالتين أرسلتا إلي من مكتب الصحيفة... تلقيتهما معاً في نفس اليوم...»

وتوقف عن كلام كاد يتفوه به، ثم تابع يقول: «أما الرسالة الأخرى فلا بد أنها فقدت، عندما علمت بمرض عمتي، ركبت أول طائرة إلى انكلترا.» وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة بينما بان التهكم في عينيه وهو يتابع. «لم يكن لدي خيار في ذلك فقد تكلمت أنت بكل صراحة، أليس كذلك؟»

واحمر وجهها وهي تتمنى أن يفسر بأن سبب كتابتها لرسائلها بتلك الطريقة هو عدم رده عليها. كذلك، كانت تجاهد في ان لا تتأثر بابتسامته التي اشرق بها وجهه وما أسبغته على ملامحه من دفء.

واتسعت ابتسامته وهو يقول: «ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه لأول مرة عند بيت الدجاج، كنت قد وصلت لتوي من المطار بعد سفر أربع وعشرين ساعة متواصلة.»

لم تعجب تشارلي، عند سماعها هذا، من سوء طبعه حينذاك، خاصة عندما أخذت هي توجه إليه الاتهامات.

وقالت ببطء: «أظن أنه ينبغي لي أن أعتذر منك عما بدر مني نحوك.» وأخذت تحاول جاهدة النظر إلى الأشياء من هذه الناحية الجديدة، ذلك انها قد اقتنعت منذ وقت طويل،

بانه كان يهمل عمته بسبب انانيته، ولم تحاول ابداً ان تفكر في انه ربما كان ثمة سبب آخر لعدم اجابته. ذلك ان الكرب الذي كانت مخدومتها تعانيه، قد اعماها عن التفكير بهدوء وعقلانية.

هز بول كتفيه، غير آبه لكلامها، وهو يقول: «من الواضح انك مخلصة جداً وهذا شيء حسن ولو انه لم يكن متوقعاً.»

قالت: «لقد أحببتها كثيراً اثناء عملي معها. فهي سيدة عجوز رائعة.»

ضحك بول قائلاً: «إياك ان تدعيها تسمعك وأنت تقولين انها سيدة عجوز.» وزاد خفقان قلب تشارلي وهي ترى ابتسامته يشرق بها وجهه مرة أخرى، ولحظت، لأول مرة، الرقة والقوة اللتين تتميز بهما ملامحه.

قال: «ان لها شخصية مستقلة صارمة. وقد عجبت عندما علمت باستخدامها لك. ذلك انني سبق واقترحت عليها، منذ سنوات، ذلك، ولكنها رفضت مصرة على أن تقوم بكل شيء بنفسها.»

قالت: «يبدو أننا انسجمنا معاً.» وابتسمت وهي تسترجع ذكرى مقابلتها لأول مرة، لتلك السيدة التي تبدو، على غير واقعها، ضعيفة هشة، وذلك في المكتبة المحلية. والحديث الذي دار بينهما حين ساعدت السيدة العجوز على تناول كتاب من رف عال، والذي تطور إلى حديث شمل كل شيء، بما في ذلك حاجة تشارلي إلى عمل.

سألها بول: «ماذا كنت تشتغلين من قبل؟» وسرعان ما بهتت ابتسامة تشارلي وهي تقول: «كنت سكرتيرة في مكتب في ليدز وكنت أعيش هناك في شقة مشتركة مع تلميذة جامعية... ولكن ذلك... لم يدم.»

كانت تريد أن تنهي الحديث عند هذا الحد، ولكن، من نظرة التساؤل التي وجهها إليها، بدا واضحاً انه يريد منها أن تتابع الحديث الذي بدأته. ولأنها تعرف مدى شكوكه فيها، فقد رأت ان من الحكمة ألا تخفي عنه شيئاً.

سألها: «كيف كان ذلك؟»

أجابت: «لقد أفلست الشركة التي كنت اعمل فيها إلى حد لم يستطيعوا فيه دفع راتب آخر شهر للموظفين. ولهذا، قررت أن أترك مدينة ليدز إلى الأبد.»

قال: «كان عليك أن تبحثي عن وظيفة أخرى.»

قالت: «هذا ممكن طبعاً، ولكنني، شخصياً، لم أشأ البقاء في ليدز...»

وفكرت في أن تنهي قصتها كلها لتتخلص من أسئلته نهائياً، فتابعت تقول: «لقد كنت تعرفت إلى شخص، ونشأت بيننا صداقة... حسناً، ظننته انساناً مخلصاً، وانه يبادلني نفس شعوري. إلى أن حدث أنه في اليوم الذي افلست فيه الشركة، أرسلنا جميعاً إلى منازلنا قبل الوقت المعتاد، ولما وصلت إلى شقتي، وجدت صديقي تيري في جلسة حميمة مع زميلتي في الشقة. وهكذا، حزمت امتعتي وعدت إلى منزل أهلي.»

فكرت بشيء من المرارة في انها هربت لكي تلعق جراحها بهدوء، وهكذا استقبلها اهلها، رغم حالتهم المادية القاسية، استقبلوها بكل لطف، دون اي سؤال.

سألها: «لا بد انك اجتزت وقتاً صعباً.» ولم تتأكد تشارلي من نوع التعبير الذي بدا على ملامحه، ولكنه لم يكن شفقة، على الأقل، فهي لم تكن تريد الشفقة.

قالت: «لم أعد أثق الآن بأي شخص بسرعة.» واهتز صوتها قليلاً وهي تقول هذا. لم يكن من شأنه أن يعلم انها، بعد أسبوعين هادئين في منزلها، علمت أن تيري لم يكن ليستحق كل ذلك الاهتمام. وفي الحقيقة ان ما آلمها هو جرح كبريائها الذي أحدث لها صدمة عنيفة، وخسارتها لعملها في نفس اليوم.

قالت أخيراً: «حسناً، لقد كان هذا منذ وقت طويل. هل تريد مزيداً من القهوة؟»

كان في الطريقة التي ينظر بها إليها، متفحصاً اياها بشدة بعينيه الرماديتين، ما أثار أعصابها وجعلها تقف بحركة سريعة مضطربة.

أجاب بول وهو يرشف آخر ما تبقى في فنجانه: «كلا. شكراً.» ثم وقف هو أيضاً متوجهاً بفنجانه إلى الحوض ليغسله وهو يقول: «أريد أن أقوم ببعض الاشياء أثناء وجودي هنا. أولاً، حشائش الحديقة في حاجة إلى قص. هل آلة قص الحشائش ما زالت في مكانها في الحديقة؟»

أجابت: «نعم. وهذا هو المفتاح.» وتناولته تشارلي من حيث كان معلقاً بجانب الباب الخلفي، ثم ألقت به إلى بول الذي تلقاه بيد واحدة.

وعندما ترك المطبخ متوجهاً إلى الحديقة، فكرت هي في قوله (هل آلة قص الحشائش ما زالت في مكانها في الحديقة) ان هذا يعني انه يعرف المنزل النهري. لقد تحدثت الآنسة اميلي عن انجازاته في السنوات العشر الأخيرة، منذ ترك الجامعة وابتدأ يعمل في الصحافة، ولكنها لم تتحدث عنه قبل ذلك. وفي تلك الأثناء، كان يعيش في لندن وفي

الخارج. ولكن، من الواضح ان الأشياء كانت، قبل ذلك، مختلفة.

وقطع عليها مجرى افكارها، رنين الهاتف، فهرعت لتجيب.

قالت وهي تجيب رجلاً طلب أن يتحدث إلى برايان: «كلا... انني آسفة. فان السيد مرتون ليس هنا، ولكنني أتوقع رؤيته غداً. هل تريد ان تترك له خبراً؟»

أجاب الصوت: «هل يمكنك ان تخبريه ان السيد اشلي قد اتصل... من مجموعة التنقيب... ثم تطلبين منه الاتصال بي؟»

فكرت تشارلي بعد ان وضعت السماعة، ان هذا أمر غريب. ان المتوقع ممن يتصل ببرايان، بما يتعلق بالعمل، ان يعرف عنوانه الخاص. وهذه هي المرة الثانية التي يتصل فيها به شخص من مجموعة التنقيب إلى هنا، في المنزل النهري. وكانت المرة الأولى منذ شهرين، عند ابتداء مرض الآنسة اميلي، وكانت، في ذلك الوقت، مريضة جداً، مما جعل برايان يمكث عدة أيام. وفي تلك الأثناء، تطورت بينهما العلاقة بشكل مفاجيء. وشعرت بخشية مفاجئة وهي تتذكر حضوره في عطلة نهاية الأسبوع القادمة ومن الواضح ان الآنسة ماكنزي لم تخبر بول بكل ما حدث بينهما. ولم تكن متأكدة من ردة الفعل عند بول حين يعلم أنهما، رسمياً على الأقل، يعتبران مخطوبين، ولكنه قد لا يعلم. وعلى كل حال، فان هذا الاجراء كان فقط، استجابة لاقتراح برايان لكي يسر عمته.

لقد قال لها حينذاك: «انها مستميتة لكي ترى احدنا، أنا أو بول، متزوجاً وعنده أطفال، وأظنها متلهفة إلى أن ترى أحفاد اخوتها أو حفيداتهم، قبل موتها. ولم نستطع القيام

بذلك لأجلها. ولكنني متأكد من أنها ستكون سعيدة جداً إذا رأت واحداً منا خاطباً على الأقل. ولأنها تحبك، فستكون مسرورة بذلك أيضاً.»

ولأنها علمت مما قالته مخدومتها، ان لهفتها لأن ترى حفيدي أخيها متزوجين، كانت قوية جداً، ولأنه، في ذلك الوقت، لم يكن متوقعاً للسيدة العجوز أن تعيش إلى أكثر من آخر الشهر، فقد وافقت تشارلي على ذلك.

على كل حال، فقد اختلفت الأمور الآن. فان الآنسة اميلي تسترد قواها ويبدو انها ستشفى تماماً. وربما حان الوقت لكي تنهي هذه الخطبة الصورية. لقد كان دوراً تمثيلياً لم تسترح تشارلي إليه قط، إذ كرهت ان تخدع السيدة العجوز، ولو كان ذلك لاسعادها، وهي تفضل تماماً ان تنتهي من هذا الأمر. خصوصاً الآن أثناء وجود بول في بلدة بارفورد وهو الممتلىء بالشكوك فيها هي نفسها. إن في امكانها ان تتصور نظرته إلى الوضع، ومجرد التفكير في هذا، جعلها ترتجف.

عند هذه النقطة، قادتها افكارها، بطبيعة الحال، إلى اعادة النظر في الحديث الذي كان قد دار بينها وبين بول. لقد قال شيئاً جعلها تعبس فجأة: «من الواضح انك مخلصة جداً لعمتي، وهذا شيء حسن ولو انه لم يكن متوقعاً.»

«لم يكن متوقعاً» وكررت تشارلي هذه الكلمة بصوت عال. لماذا لم يكن متوقعاً؟

ترددت هذه الكلمات في ذهنها مرة بعد أخرى. وكان غضبها يزداد بعد كل مرة إلى أن بلغت من الحنق بحيث لم تعد ترى ما ينقص عملها من حكمة. فالقت بمنشفة كانت

بيدها، وخرجت من المنزل إلى الحديقة الخلفية حيث كان بول قد ابتدأ بقطع الحشائش.

قالت له بصوت طغى على صوت الآلة: «ما الذي عنيته حين قلت ولو لم يكن متوقعاً؟» وبدا انه سمع صوتها دون كلماتها، فأوقف الآلة وهو يقول عابساً: «هل قلت شيئاً؟»

أجابت: «نعم. أريد أن أعرف ما الذي عنيته بكلامك أنه لم يكن متوقعاً ان أكون مخلصة للآنسة اميلي؟»

قال: «آه...» ووضع بول أصابعه القوية السمراء على الآلة وقد بان عليه التفكير لحظة. وتألقت خصل شعره البنية المائلة للحمرة في أشعة الشمس فبدت بلون النحاس مما منحها مظهراً جذاباً. وغضبت تشارلي من نفسها إذ وجدت افكارها تدور حول هذه النقطة، ثم أرغمت نفسها على اعادة انتباهها إلى المسألة التي جاءت لأجلها.

وقالت بنبرة متهجمة: «إذاً؟» وما لبثت ان ندمت على لهجتها هذه عندما رفع رأسه ليحدق في عينيها متوغلاً في أعماقها، وهو يقول ببرود: «كيف يبدو ذلك لك؟ تصوري انها عمتك انت، وأنك كنت بعيدة مسافة ألوف الأميال، ثم اذا بك تسمعين ان امرأة شابة لا تعرفينها قد شقت طريقها إلى حياتها، طالبة عملاً، ثم...»

قاطعته بصوت مرتفع ثاقب لشدة الغضب: «انني لم أشق طريقي كما أنني لم أطلب منها عملاً. إن الآنسة...»

قاطعها قائلاً ببرود: «ربما لم تطلبي بصراحة، ولكنك أفهمتها أنك في حاجة إلى عمل.»

قالت: «إنني...» ولم تجد ما تقوله، فقد كان كلامه صحيحاً إذ أنها أخبرت الآنسة إميلي انها فقدت وظيفتها

وتبحث عن وظيفة أخرى، حتى انها اخبرتها بشدة لهفتها لذلك اذ ان والديها ليس في امكانهما اعالتها. ولكنه كان يعني انها كانت تلمح لها بطلب وظيفة. وفي الحقيقة، كان يقول انها لا بد أخذت تفتش عن السيدة العجوز لهذا السبب.

قالت: «أتريد أن تقول انني تملقت الآنسة اميلي لكي توظفني؟»

أجاب: «لا أقول بالضبط انك تملقتها، ولكنها سيدة عجوز بالغة الثراء، وهي لم تطلب مرافقة في حياتها قط من قبل... كما انها لم تعرفك قبلاً...»

قاطعته تشارلي وقد فقدت تمالكها لأعصابها تماماً الآن: «هذا يكفي، ربما لم أكن أنا أسكن في بارفورد منذ مدة طويلة، ولكن والدي عاشا هنا ما يقرب من السنتين. انك جعلتني أبدو بمظهر امرأة طماعة رأت فرصة سانحة فاسرعت تنتهزها، وتبتزها لأهدافها الخاصة.»

قال بخشونة وقد بدت القسوة والبرود في عينيه: «هذا يبدو جلياً.»

قالت: «كلا، ليس الأمر بهذا الشكل. لقد طلبت مني الآنسة اميلي العمل عندها منذ أول لقاء. انها هي التي اصرت على هذا. وفي الحقيقة، لم ألبها أنا...»

قاطعها بحقد: «وكانت النتيجة انها شكت في قيمة المبلغ الذي عرضته عليك.»

لم تستطع هي ان تنكر ذلك، فقالت: «نعم، حسناً... ولكن، في النهاية، لم يكن المال هو المهم. لقد أدركت انها كانت حقاً تريدني ان اعمل لديها... وأنها كانت تريد أحداً، كمرافق لها.»

قال: «غريب أن تطلب الآن شيئاً سبق ورفضته من قبل.»

قالت: «ربما اتعبتها الوحدة، والاهمال، وهجر ابن بنت أخيها، المفضل عندها، لها! ما الذي كنت تعنيه؟»

قال وقد استحال هدوؤه إلى ثورة عنيفة: «انني لا أعني شيئاً.» وصرت هي بأسنانها وقد شعرت بالنار تحرقها وهو يتابع قائلاً: «الموضوع الظاهر هو هكذا، سيدة عجوز، بالغة الغنى.» وشدد على هذه الجملة الأخيرة. «تقابل فتاة لا تعرفها تبحث عن حظها، وتخبرها هذه بقصة محزنة عن فقدانها لوظيفتها وعن والديها اللذين ليس في امكانهما اعالتها...»

جفلت تشارلي وهي تسمع كلماته تعكس بشكل غريب افكارها الخاصة منذ لحظات قليلة، وشتمت في نفسها ردة فعلها الغريزية هذه عندما رأت عينيه الرماديتين تضيقان، لتعلم انه أساء تفسير سلوكها بأنه تعبير عن الشعور بالذنب.

وعاد يقول بسخرية لاذعة: «وهذه المرأة الشابة تجد عملاً صورياً تتقاضى لقاءه مرتباً فاحشاً... انه عمل لا يتعدى كتابة عدة رسائل، ومسح الغبار عن التحف... حتى في اثناء وجود العمة اميلي في المنزل.»

قالت: «هذا غير صحيح. ان عقلاً ممسوساً مثل عقلك هو فقط يحول وضعاً بريئاً إلى تمثيلية رديئة مثل هذه! ليس لك الحق في اتهامي...»

وخطر لها فجأة، خاطر شحب له وجهها واتسعت له عيناها بتأثير الصدمة، وقالت: «لقد تساءلت لماذا لا أفتش عن الحقائق، قبل الادانة. وهذا بالضبط ما تفعله أنت، أليس كذلك؟ انك تظن حقاً انني استغل الآنسة اميلي و...»

انحدرت الأمور إلى الأسوأ عندما انفجر البركان الذي كان يعتمل في داخلها، بوحشية، بعدما أدركت كل شيء، وقالت: «وهذا هو السبب، إذاً، في مكوثك معنا في بيتنا؟ إنك تتفحص أمورنا جميعاً، بما في ذلك والديّ؟»

ولم يتكبد هو عناء انكار ذلك، وبقي يراقبها بتلك الملامح البليدة المتحجرة مما زاد في ثورتها.

قالت بعنف: «هل تتجسس علينا جميعاً؟ حتى انك عرفت بكل مشكلاتنا المادية، بما فيها استبدال الأسلاك... انك تنتهك حرمتنا...»

لقد كان، إذاً، يتخذ معلوماته هذه كشواهد ضدهم.

فرد عليها قائلاً بصرامة لا رحمة فيها: «لقد أخبرت أنت عمتي بهذا.»

قالت: «ولعلك ظننت أنني كنت أحاول بهذا اقناعها باعطائنا ما نحتاجه للتصليحات في منزلنا. لديك الجرأة بان تتهمنا بأي شيء بينما أنت لست سوى منافق اناني، على الأقل كنت أنا موجودة عندما أصابت نوبة المرض عمتك...»

وأصابت بتلك نقطة حساسة، إذ شحب وجهه وتوترت ملامحه من الغضب وهو يقول بعنف: «لقد سبق وأوضحت هذا.»

ردت عليه: «كلا. انك لم تفعل.» كانت قد نبذت كل جهد لضبط نفسها الآن وهي تتابع قائلة: «لم تقل الحقيقة كاملة عن عدم وصول الرسائل وكنت أنا من الحماقة بحيث صدقت ذلك. حتى انني اعتذرت اليك.»

اهتز وجهها اشمئزازاً من نفسها لوقوعها في الشرك بينما كل قصده كان كسب ثقتها أملاً في ان يجعلها تكشف عما في نفسها بسرعة.

قالت: «ليس لك الحق في اتهامي بشيء. انك شخص يأتي إلى هنا ويترك المكان فقط في الوقت الذي يناسبه، ليحصل على ما يستطيع.»

وتذكرت نظرة المالك المتسلط الى المطبخ منذ فترة وكلمته المتغطرسة وهو يقول: «انني المسؤول هنا.» وذلك في أول يوم قابلته فيه، وجعلتها هذه الذكرى ترى الأشياء امامها بلون الدم. لقد قال برايان مرة ان ابن خالته هو وحش، ولكنها لم تتوقع ان يكون بهذا السوء.

وعادت تقول: «على كل حال، كما سبق وقلت، الآنسة ماكنزي هي امرأة غنية جداً وبما أن قريبها الوحيد الحي هو حفيد أخيها، فيجب ان يتصرف بشكل يؤهله للاستفادة من وصيتها.»

عندما توقفت عن الكلام لتلتقط أنفاسها، قال مصححا كلامها: «حفيد أخيها. لا تنسي ابن الخالة العزيز برايان.»

وقالت: «ان برايان على الأقل يستحق أن يرث قسماً، أو كل أملاك الآنسة ماكنزي لأنه أبدى نحوها بعض العواطف.»

فقال: «أرى ان ليس لك الجرأة في ان تسمي ما أبداه نحوها برايان، حباً. ان برايان ليس منزهاً...»

قالت: «انه يتصرف بشكل افضل مما تفعل أنت.» وضحكت بازدراء عميق وهي تتابع قائلة: «يمكنني ان اتصور شعوره بعد ثلاثة اشهر من العناية والاهتمام بعمته، ليسمع في النهاية أن تقدم صحتها مؤخراً هو بسبب وصولك. ان هذا لا بد أن يضايقه حقاً.»

قال: «ان هذا ليس أسوأ مما يفعل في نفسي صدى

وقع اسمه من بين شفتيك واسترسالك في سرد فضائله.»

قالت ساخرة: «ربما هو ضميرك يزعجك، مع أنني أشك في أن عندك ضمير! لا يمكن هذا، والا لما امكنك ان تعيش في بيتنا، وتأكل من الطعام الذي تطبخه امي، وتنام في السرير...»

كان عليها هنا أن تسكت وقد طغى عليها الاشمئزاز اذ تذكرت كيف انه، هذا الصباح، كان يتجاذب مع أمها أطراف الحديث، فيضحكها بنوادره، ويسرها باطرائه، بينما هو، طيلة الوقت، يخفي في نفسه تلك الشكوك الرهيبة. ان التفكير في ان يعتقد احد أن والديها اللطيفين غير العمليين، واللذين ينقصهما الحزم، في مقدورهما أن يخدعا سيدة مسنة ليستغلاها مادياً، هذا التفكير كان مخيفاً بعيداً عن التصديق. ولكن والديها قد اشتركا في هذه القضية لأنها كانت تعيش بينهما فقط. فقد كانت هي الشخصية الرئيسية المشكوك فيها. الشخصية التي يظن هو حقاً انها مذنبة. وسرعان ما عادت إليها مخاوفها السابقة عن احتمال نوع رد الفعل عند بول عندما يعلم بخطبتها لابن خالته. يجب ان تتحدث الى برايان في أسرع وقت ممكن غداً. وألقت نظرة عليه مليئة بالكراهية وهي تقول: «انك احمق وبغيض وأنا أكرهك.»

هز بول كتفيه دون اكتراث، قائلاً: «إنني، شخصياً، لا أهتم مثقال ذرة بنوع شعورك نحوي... ورأيي الخاص فيك ليس بالحسن. والآن، لو سمحت، فأنا عندي ما أعمله...»

كان على وشك ان يشغل الآلة مرة أخرى، عندما قالت تشارلي: «بقي شيء واحد. بعد كل هذا، لا يمكن ابداً ان تفكر

بالبقاء في بيتنا. عليك أن تفكر في مكان آخر.»

تلاقت أنظاره بأنظارها، رمادية متألقة كالثلج في شكله وبرودته أيضاً. واقشعر جسدها وكأن نظرته هذه قد سحبت كل الدفء من اشعة الشمس.

قال ساخراً: «ولماذا عليّ ان ارحل؟ انني مرتاح تماماً حيث أنا. لقد كانت عمتي على حق... فالطعام لذيذ... انه يستحق ما يدفع فيه من نقود. فأنا أكون أحمق لو تركت المكان.»

قالت: «ولكنك لا تستطيع...»

قاطعها في تلك اللهجة الدقيقة المحكمة التي تكرهها: «يا آنسة هارينغتون. إنني أستطيع ان أفعل ما يسرني... وليس ثمة طريقة تمنعينني بها من ذلك، ولهذا انصحك بأن لا تحاولي هذا... والا فإنك تضيعين وقتك.»

الفصل الخامس

أشرق وجه إميلي ماكنزي وهي تقدم خدها إلى شارلوت لتقبلها هذه، وهي تقول بسرور: «شارلوت، يا عزيزتي! ما أشد سروري برؤيتك. انني لم ارك منذ اكثر من اسبوع. لقد اهملتني.»

قالت تشارلي مبتسمة: «كلا ابداً. انك تعرفين ما قاله الأطباء من أنك لا يمكن ان تستقبلي اكثر من زائر في وقت واحد، وبجانب هذا، فإن عندك الآن مرافقاً آخر، أليس كذلك؟»

أنار وجه السيدة المسنة اشراق توهج له وجهها، وشعت عيناها بابتسامة غبطة، وهي تقول: «كنت اعرف انه لا يمكن أن يتخلى عني.. وأنه لا يطيل غيابه عني إلا شيء في غاية الأهمية.»

فكرت تشارلي ساخرة، في غاية الأهمية... حسناً، نعم. انها تفترض ذلك إذ، بالنسبة إلى بول، فإن ملاحقة حدث صحفي هي أهم من كل اعتبار انساني عنده.

وعادت السيدة المسنة تقول: «ولكن المهم أنه هنا الآن. اخبريني إذاً، ما رأيك فيه يا عزيزتي؟»

«رأيي فيه...» لم تستطع تشارلي أن تواجه نظرات المرأة وتشاغلت بتسوية غطاء السرير الذي لم تكن تشوبه شائبة، وتابعت قائلة: «انني... إنه تماماً كما توقعته أن يكون.»

قالت إميلي بسعادة ظناً منها أنها تعني بذلك أنها وجدته تماماً كما كانت تصفه عمته: «نعم. انه لم يتغير قط. إنه شخصية فريدة في نوعها.»

جاهدت تشارلي لكي تمنع السخرية من أن ترتسم على ملامحها. ولم تستطع ان تجلس لكي تستمع إلى الآنسة إميلي تتغنى بمديح بول طيلة الوقت، وشعرت بأنها، إذا هي استمرت بذلك، فستشعر بالغثيان. ونظرت حولها، ثم اشارت إلى باقة ضخمة من الأزهار بجانب السرير وهي تقول محاولة الهاء مخدومتها، مذكرة إياها بأن لديها حفيد أخ آخر اكثر استحقاقاً لحبها واعجابها. قالت: «أرى أن برايان قد احضر لك زهوراً مرة أخرى؟» وبالكاد ألقت اميلي نظرة على تلك الزهور وهي تقول: «آه، نعم... ان ذلك الشخص كثير الاهتمام... انه، احياناً، يسرف بإرضائي.»

قالت تشارلي: «انه يهتم بك.»

هل تراها رأت في تلك العينين الزرقاوين نظرة ارتياب صريحة؟ أم انها تخيلت ذلك؟ ولكن لم تسنح لها الفرصة للتفكير في هذا الأمر إذ أن الآنسة إميلي تحولت بالموضوع مما منعها من التفكير بأي شيء آخر، فقالت: «يبدو عليك التحيز إلى برايان.. وهذا طبيعي على كل حال.»

فكرت تشارلي أن لا بد لها من تصفية حسابها مع برايان، فهي لن تستطيع متابعة هذا الادعاء بعد الآن، خصوصاً بعدما لم يعد ثمة ضرورة لذلك.

قالت العمة: «ولكنك تعرفين، يا عزيزتي، أن برايان ليس بالرجل المناسب لك.»

أجابت تشارلي: «هل هذا هو رأيك؟» كان هذا آخر شيء توقعته تشارلي. وعلى كل حال، فإن الآنسة إميلي لم يسبق لها التحدث مطولاً عن هذه الخطبة الصورية. وكانت تشارلي، أحياناً، تفكر في أن مخدومتها ربما كانت من شدة

المرض بحيث لم تتذكر ما اخبرها به برايان عن الخطبة.

قالت إميلي بصوت حازم: «نعم. انني اعرف أن كليهما، قريبان لي، ولكنني، إذا أردت أن اكون صادقة معك، فإن الشخص الذي اريد ان اراك زوجة له هو...»

انفجرت تشارلي تقاطعها دون أن تستطيع اخفاء الصدمة التي شعرت بها: «لا يمكن أن تقصدي بكلامك بول؟» وجاهدت لتخفي نظرة الفزع في عينيها.

قالت إميلي: «طبعاً اقصده، ما هو الخطأ في هذا؟»

أجابت تشارلي: «لا... لا شيء. كل ما في الأمر... انني لم أفكر فيه من هذه الناحية. وأظنه، من ناحيته، مستغرقاً في عمله إلى درجة كبيرة.»

قالت إميلي: «هذا هراء. ان ما يحتاج إليه هذا الصبي، هو زوجة وأسرة لكي يستقر ويترك تلك الأسفار.»

أخفت تشارلي ابتسامتها وهي تتصور وصف هذه السيدة له بالصبي، بينما هي لا تكاد تبلغ نصف حجمه. وفكرت في أنه ليس ثمة من يستطيع أن يحمل بول على الاستقرار. وما لبثت أن حولت الموضوع إلى مجرى آخر. انها لم تشأ أن تمضي وقتها المحدود جداً مع مخدومتها في الحديث عن أي من حفيدي اخيها اللذين عقدا حياتها هي بشكل كبير: برايان بخطبته المزعومة، وبول بشكوكه الحمقاء، ووجوده غير المرغوب فيه في منزل اهلها.

أخيراً، نهضت مرغمة، لتخرج بعد ما حان الوقت لذلك. وكان برايان قد سبق وأمضى بعض الوقت مع عمته، وكانت التعليمات بعدم ارهاقها، متشددة.

قالت لها: «سآتي قريباً مرة أخرى، وإذا احتجت لأي شيء، فارسلي إليّ خبراً.»

أجابت اميلي: «إن عندي كل ما أريده الآن.» وشعرت تشارلي بالاستياء حين لم تتكر مخدومتها عن أية حاجة إلى قمصان نوم ومناشف نظيفة. كيف يمكن لأي انسان على مقدار كبير من الوعي أن يعمى عن حقيقة بول ساريزن؟ ثم هو يجرؤ على اتهامها بخداع عمته بعد كل ذلك!

جاهدت في اخفاء مشاعرها وهي تحتضن مخدومتها وتقبلها، ثم تركتها، ولكن قبل ان تصل إلى الباب، نادتها الآنسة ماكنزي قائلة:

«لقد كدت انسى، يا عزيزتي، أرجوك أن تبلغي أمك شكري الجزيل... إنني ممتنة جداً لمعاملتها الحسنة لبول، فهو في حاجة إلى بعض الرعاية والعناية.»

الرعاية والعناية؟ واستطاعت ان تكبت تشارلي ازدراءها إلى أن اجتازت قسماً من الممر. ان بول ليس في حاجة إلى أية عناية، ان ما يستحقه حقاً هو مقدار كبير من الاهمال. فهو مفرط في التعالي، وأية زيادة في العناية به تزيده سوءاً. واتجهت نحو غرفة الانتظار، وهي مازالت ساخطة، حيث كان برايان في انتظار ان تنتهي زيارتها لعمته.

سألها وهما يقصدان موقف سيارته: «ما الذي تريدين ان تحدثيني عنه؟»

أجابت: «عن هذه الخطبة المزعومة. ألا تظن أن الوقت قد حان لكي ننتهي منها؟»

قال بحدة: «وهل اخبرت عمتي أنها انتهت؟» ولم تكن تشارلي تتوقع ان يبدي برايان كل هذا الانزعاج.

أجابت: «حسناً، ان الأمر ليس كما لو كان حقيقياً... أوه، تباً لذلك!»

افلتت هذه الصرخة منها بشكل لا إداري عندما وقعت عيناها على شخص مألوف الشكل يترجل من سيارة سوداء فارهة على بعد عدة امتار منهما. وحذا برايان حذوها ليطلق شتيمة اقوى من شتيمتها عندما رأى ابن خالته وجهاً لوجه.

قال بول ببطء وهو يقترب منهما: «أليس هذا ابن خالتي برايان والعزيزة شارلوت كذلك؟»

واظلمت عيناه الرماديتان الفولاذيتان لتصبحا بلون الغيوم المتراكمة في السماء. وارتجفت شارلوت كما لو ان سحابة حجبت وجه الشمس، عندما لاحظت الغضب والكراهية اللتين تعتملان في تينك العينين.

قال برايان بلهجة مقتضبة تقرب من الاهانة: «ساريزن.» وكانت إيماءته بالتحية اشبه بالرفض.

فكرت تشارلي في أنهما، لو لم يعلما منذ الطفولة، انهما ابناء خالة، ولو لم يعلم الناس بذلك، لما صدق احد ان ثمة ادنى صلة من القرابة بينهما، لقد كانا متناقضين تماماً. فقد كان برايان نحيفا أشقر، قد ابتدأ شعره الناعم يتراجع عن جبينه بشكل ملحوظ، ليبدو ضعيف البنية بعكس قوة بول البادية وشعره القاتم اللامع. هل من الممكن أن تناقضهما في المظهر هذا، اعطى تناقضاً مماثلاً لصفاتهما؟ كانا يبدوان كالصورة الموجودة دوماً في القصص الخرافية عن البطل الأشقر، والشرير الأسمر الأسود الشعر. ولكن، هل من الممكن ان تحدث هذه الأشياء بهذه البساطة، في الحياة الحقيقية؟ ولكن تشارلي تذكرت نظرة الارتياب التي

بدت في عيني الآنسة ماكنزي عندما ورد ذكر برايان.

سأله بول بلطف: «كيف تسير معك تجارة التحف؟» وشعرت تشارلي بالحذر من تلك الدماثة الزائفة التي لم تكن تتجلى في عينيه اللتين مازالتا باردتين داكنتين. وتابع بول يقول: «هل ما زلت تحصل على النفائس بأدنى الأسعار؟» وارتسمت على شفتيه ابتسامة اتهام جعلت اعصاب تشارلي تتوتر خوفاً، بينما تابع بول: «انك تدس انفك دوماً في المزادات والصفقات اليس كذلك؟»

لسبب ما، بداعلى برايان الانزعاج العميق من هذه الجملة البريئة ظاهراً. وبدا عليه التوتر بجانب تشارلي حتى انه تراجع خطوة إلى الوراء وكأنه أحس بالخوف. واتسعت ابتسامة بول لردة فعله هذه.

قال برايان محاولاً تمالك نفسه: «حسناً، عليّ أن أذهب الآن.»

قال بول: «أوه، انني متأكد من أنك يجب ان تذهب.» وألقى نظرة مبالغاً فيها على ساعته حوت من السخرية ما حوته كلماته وهو يتابع: «عل كل حال، لا بد أنك امضيت هنا ساعة على الأقل.»

قاطعه برايان: «ان تعليمات الطبيب تقضي بألا نرهق العمة إميلي.»

قال بول: «وهذا يلائمك جداً.» ولمعت عيناه بالشر، ولكن الانفجار الذي خافت منه تشارلي لم يحدث، إذ بدلاً، من ذلك، منحهما بول ابتسامة اخرى زائفة وهو يقول: «أرجو المعذرة، يجب ان اذهب الآن.» وفكرت تشارلي في أن لهجته الساخرة تشير إلى أنه سيذهب إلى زيارة عمته في الوقت الذي يتركها برايان فيه. وغلى الغضب داخلها.. يا

للنفاق! وماذا بشأن تلك الثلاثة اشهر التي اهملها فيها؟

قال بول يخاطبه: «قد أراك في ما بعد.»

تمتم برايان بكلام غير مفهوم وهو يتوجه نحو سيارته وكأنه يريد ان يبتعد عن ابن خالته قدر المستطاع، وكشف الوقت الطويل الذي امضاه في وضع المفتاح في القفل، عن مدى الارتباك غير العادي الذي احدثته سخرية بول به، وفي هذه الاثناء، انتبهت تشارلي إلى مجموعة من الأشياء في المقعد الخلفي، وعلى الأخص واحد منها ميزته من بينها، فسألته: «أليست تلك لوحة السيد هادج العجوز؟»

أجاب برايان وهو يفتح الباب ويمسكه لها لكي تجلس: «كانت لوحته، وكان ينتقل من منزله، وقد سلمني إياها بيده.»

سألته تشارلي مشدوهة: «ينتقل؟» ذلك أن امها كانت تزور السيد هادج على الدوام، وكانت تحدث ابنتها بالكثير عنه، وتابعت تقول: «ولكنني اعرف ان هذه اللوحة اهدتها له زوجته في عيد زواجهما العشرين. وهو قد اعتزل العالم منذ وفاتها، فهو لا يبيع لوحاته هذه ولو دفعوا له فيها ثروة كاملة؟»

قال: «ربما كنت تتحدثين عن لوحة أخرى.» وبدا لها صوته مختلفاً بشكل غريب وأكثر خشونة. وتابع: «لقد باعني اياها هذا الصباح، وقد بدا مسروراً جداً بالثمن الذي دفعته له فيها.»

سألته: «هل هي ثمينة؟» وشعرت بنوع من التقزز لدى تفكيرها بأن برايان يجمع بين العمل وزيارته لعمته، في نفس الوقت، وفكرت بعدم ارتياح في سخرية بول وهو يسأله عن شرائه للنفائس بأدنى الأسعار.

وقال برايان: «سأجني من هذه اللوحة مبلغاً جيداً. أما بالنسبة إلى موضوع الخطبة، أفلا تظنين أن الوقت مازال مبكراً لفسخها؟»

قالت: «انها لاتستلزم الفسخ، لأنها لم تكن موجودة اصلاً.» وكان التوتر في داخلها قد جعل صوتها حاداً وهي تتابع قائلة: «انني لا أجد من اللائق أن اخدع الآنسة اميلي بهذا.»

قاطعها قائلاً: «هذا ليس خداعاً. كان قصدنا اسعادها فقط.»

قالت تشارلي وهي تتذكر كلام الآنسة اميلي منذ حين: «احقاً جعلناها كذلك؟»

أجاب: «حسناً، لقد كانت مسرورة عندما أخبرتها بالخطبة.» احقاً كانت كذلك؟ تردد هذا السؤال في ذهن تشارلي. فهي لم تكن موجودة عندما اخبر برايان عمته عن هذه الخطبة المزعومة. لهذا فهي لا تعرف كيف تلقت عمته الخبر إلا من خلاله هو. ومنذ ذلك الحين لم تشر مخدومتها إلى هذا إلا نادراً.. ما عدا هذا النهار حين لم يبد عليها السرور لذلك.

وعاد يقول: «ألا تظنين أن الوقت مازال مبكراً لإخبارها؟»

قالت: «مبكراً؟» وشعرت تشارلي بالاضطراب وتشوش الذهن. لقد كانت فكرة الخطبة المزعومة بنت ساعتها لكي يعدا آخر ساعات الآنسة اميلي. والآن، عندما اصبح معلوماً انها لن تموت، فإن الاستمرار في هذه التمثيلية لم يعد له لزوم، وإنما يضخم من الخديعة الأساسية.

وقال هو: «حسناً، وماذا لو حدث لها نكسة أو...؟»

أحست تشارلي بالضيق، وقالت بحزم: «ان الآنسة اميلي لن تحدث لها نكسة.» لقد صنعت هذا المعروف مع برايان

في ظروف استثنائية، وهذه الظروف قد تغيرت الآن، وليس في نيتها ان تتابع هذه الفكرة... حتى انها لم تكن متأكدة من صلاحية هذه الفكرة منذ البداية.

تابعت تقول: «انها في طريق الشفاء الآن والجميع يرون ذلك، كما ان الأطباء يتحدثون عن قرب عودتها إلى بيتها.»

قال: «ولكن... حسناً، سأخبرها في الأسبوع القادم.»

قالت: «انني سأراها غداً، ويمكنني...» ولكن برايان قاطعها قائلاً: «أظن أن من الأفضل أن يأتي الخبر مني أنا... وبعد، فهو أنا الذي كنت قد اخبرتها بالخطوبة.»

بهذا، كان عليها أن توافق، رغم انها لم تكن مسرورة بهذا الارجاء.

قال لها: «هل تريدينني ان انزلك عند بيتك أم عند المنزل النهري؟»

قالت: «عند بيتي من فضلك لكي اغسل هذه المناشف.»

وما ان وقفت السيارة خارج منزلها حتى تذكرت ذلك الاتصال الهاتفي الذي كانت قد تلقته أمس الأول، فقالت: «آه، لقد كدت أنسى، اتصل شخص من مجموعة التنقيب مرة أخرى، وهو السيد أشلي، وطلب مني أن اخبرك لتتصل به.»

في غير هذه الظروف، لم تكن تشارلي لتلاحظ التعبير الذي بدا على ملامح برايان لدى سماعه هذا، ولكنها اليوم كانت تشعر بحساسية خاصة بالنسبة لاهتماماته، غير مستطيعة التخلص من الشعور بعدم الارتياح الذي ساورها منذ حديثها ذاك مع الآنسة ماكنزي وتملكها شعور مقلق بأنه، أثناء علاقتهما هذه، لم يكن يخبرها بالحقيقة كاملة.

وعندما اصبحت بمفردها، كان ذهنها قد اصبح مسرحاً للفوضى والأفكار المختلطة وهي تراقب سيارة برايان تبتعد. لقد احترمته وشعرت نحوه بالمودة خلال الثلاثة اشهر الماضية، معتقدة أنه رجل مخلص وكريم، ويهتم بقريبته الآنسة ماكنزي، وقد كانت تستنكر بغضب، تلميحات بول السيئة عن ابن خالته، وكانت تعتقد ان تصرفها هذا كان صواباً... فلماذا إذاً، تفقد هذه الثقة فجأة وتساورها الشكوك في سابق قناعتها؟ انها، بالطبع، لم تكن قد ابتدأت تصدق بول.

لكن، لا. لقد ابتدأ كل شيء في غرفة المستشفى، عندما أخذت الآنسة اميلي تصف اهتمام برايان بها بأنه زائد عن الحد. ودخلت تشارلي البيت وهي تهز رأسها مشوشة الذهن، وأخذت تضع المناشف في آلة الغسيل، وهي تعيد النظر في الحديث الذي دار بينها وبين مخدومتها. من حسن الحظ أنها لم تقع في غرام برايان، وإلا لتألمت جداً لما قالته مخدومتها لها من أنه لا يناسبها. وهي، على الأقل، قد تمكنت من اقناعه بأن يشرح لعمته عن حقيقة خطبتهما تلك. ولكنها تمنت لو تنتهي من هذه المسألة قبل آخر الأسبوع... لقد أرادت ان تنتهي من هذا الوضع كلياً.

بعد ذلك بساعة، كانت تشارلي في الحديقة تنشر المناشف المغسولة على الحبل، عندما علمت من صفق الباب الخارجي أن بول قد عاد من المستشفى وعندما انتهت من وضع آخر ملقط غسيل، كان هو قد ظهر عند باب المطبخ. وأحست هي في الحال، بتصلب في جسمها، شاعرة بأن شيئاً ما غاية في السوء، قد حدث. كان التوتر غير العادي

في ملامحه، والطريقة التي كان يدس فيها يديه في جيبيه. كل ذلك كان يدل على الجهد البالغ الذي يبذله لتمالك مشاعره، وسألها بخشونة: «أين والداك؟»

أجابت: «انهما في الخارج. أمي...»

قال: «هذا حسن. أدخلي، فأنا أريد أن اتحدث إليك.»

قالت: «كيف تجرؤ على أن تملي عليّ أوامرك؟»

أجاب: «انني افعل ما يعجبني. ويمكنك إرجاء التظاهر بالبراءة إلى المناسبات التي تستلزم ذلك، ايتها الآنسة. ان عندي ما أقوله لك وعليك ان تستمعي اليه جيداً. والخيار الوحيد الذي لك في هذه المسألة هو، إما أن تفعل ذلك في الداخل، وإما هنا حيث في إمكان الجيران ان يسمعونا.»

رفعت تشارلي رأسها بمرارة وهي ترى ان لا خيار أمامها فعلاً، ثم اندفعت إلى الداخل وهي تدفعه من أمامها، متمنية أن لا يرى انفعالها وتصاعد خفقات قلبها بين ضلوعها. انها لم تعرف ما الذي اراد أن يقوله لها، ولكنها لم تشك في أنه أمر لا يبعث على السرور. وفي غرفة الجلوس، استدارت إليه تواجهه وهي تقول: «حسناً؟» وارتجف صوتها وهي تشاهد لمعان عينيه شعرت معه بقلبها يقفز هلعاً. لقد سبق ورأته غاضباً من قبل، ولكنها لم تعرف غضباً كهذا الذي يبدو لها الآن. كان سخطه بالغ العنف تكاد تشتمُه في الجو كما يشتمُ الحيوان القبائل المغيرة، وشعرت بخوف عميق يائس.

سألها: «أين برايان؟»

كان هذا آخر شيء توقعته، وحملقت فيه لحظة تحاول أن تجد الجواب لهذا. ثم قالت متلعثمة: «بـ... برايان؟»

قال: «هيا. لا تتصنعي الغباء يا شارلوت. تكلمي.»

انحدرت انظاره الملتهبة إلى يديها، ثم صعدت إلى وجهها مرة أخرى، وقال: «انك لا تلبسين خاتم خطوبة.» وذهلت هي لسرعة انتقاله إلى محادثة عادية تقريباً ولكنه، في اللحظة التالية، عاد إليه غضبه مرة اخرى. ليقذفها بكلماته بوحشية: «والآن، اخبريني... أين هو خطيبك الغالي؟»

لقد كانت تعرف ما يريد أن يقول منذ سؤاله الأول عن برايان، ولكنها تمنت أن تكون مخطئة، إلى أن تفوه بكلمة خطيبك، لتنهار آمالها في أن يكون سبب غضبه شيء آخر. لا بد أن الآنسة اميلي قد اخبرته بما دار بينهما من حديث هذا النهار، وتمنت لو أنها تمكنت من اقناع برايان بأن يدعها تشرح الأمر لعمته بنفسها وقبل آخر الأسبوع. ولكن، أليست الحقيقة هي ان ذلك لن يشكل أي فرق؟ ذلك أن بول سيعلم بالأمر حالا. لقد كانت دوماً تعرف أن ما سيكتشفه لن يعجبه. ولكنها لم تتوقع منه مثل هذا.

قالت بضعف: «انك تعلم إذاً؟»

أجاب يقلدها ساخراً: «انك تعلم إذاً؟ هل هذا كل ما في إمكانك قوله حقاً؟ يا عزيزتي شارلوت؟» ولفظ اسمها بطريقة مهينة وهو يتابع: «لقد خيبت أملي. كنت أظن انك ستندفعين في سرد محاسن ابن خالتي وفضائله، بينما تتجسد في شخصي أنا كل الرذائل. وكيف تعشقين الأرض التي يسير عليها وأنك لا تستطيعين الانتظار لكي تتزوجيه، ولأول مرة منذ شاء سوء حظي أن اقابلك، أرى لسانك مربوطاً هكذا فجأة لا يجد ما يقول... وهذا يؤكد شكوكي.»

سألته مبلدة الذهن: «أية شكوك؟» ما الذي يمكن ان يكون

أسوأ مما سبق وأخذ به فكرة عنها؟

أجابها متهكماً بمرارة: «أليس هذا واضحاً؟» وانتفضت تشارلي وكأن كلماته كانت تحرقها، وتابع هو، «انك بطيئة الفهم، اليوم. حسناً، جربي نفسك في هذا الآن. هل تتذكرين ما سبق وتحدثنا فيه أمس عن تلك المرأة الشابة التي قابلت عمتي وحدثتها بقصة محزنة عن حاجتها إلى العمل وكيف...؟»

قالت تشارلي بحدة نافدة الصبر: «نعم، نعم لقد تحدثنا عن كل ذلك.»

فقال بابتسامة كريهة هي ابتسامة قاطع الطريق امام فريسته العاجزة: «لقد تحدثنا إذاً. ولكن يبدو الآن ان ثمة فصلاً آخر من هذه القصة وهي أن نفس تلك المرأة الشابة، وأنا اتردد في أن ادعوها بالسيدة، تلك المرأة لم تقتنع بما تسلبه من تلك المرأة العجوز من راتب ضخم لأجل وظيفة سخيفة، بل يبدو انها وجدت طريقة لمكاسب اكثر، في وضعها هذا، مما حلمت بها في البداية. ربما في البداية، لم تكن تعلم مبلغ ثراء تلك السيدة، ولكنها عندما علمت، ادركت ان افضل طريقة لوضع يدها على مقدار اكبر من ذلك المال، هي الزواج من أحد ورثة تلك السيدة.»

لم تستطع تشارلي تصديق اذنيها، لا يمكن أبداً ان يعتقد حقاً بأنها بمثل هذا الاحتيال.

قالت: «ها قد اصبحت مضحكاً تثير السخرية.»

قال بمرارة: «أنا؟ هل أنا كذلك حقاً؟ هل تريدين الادعاء بأنك مغرمة ببرايان؟ أخشى أن تكوني قد تأخرت في هذا.»

قالت بذعر: «كلا، كلا... انني لا أحبه. ولكن فهمك للأمر هو خطأ... انني...»

قاطعها بول دون أن يدع لها مجالاً للشرح: «هل تريدين ان تنكري انها مكيدة اتفقتما، أنت وهو، عليها؟»

حدقت هي فيه بتبلّد وقد توقف ذهنها عن التفكير بشكل واضح بسبب هجومه الحاقد هذا عليها، انه يعرف الآن الحقيقة، ولكن، كيف عرفها؟ هل أخبره برايان بذلك؟ وإذا كان هذا، فلماذا إذاً يستجوبها؟

قالت: «كلا، أعني نعم... لقد خططنا للأمر معاً.» واختفى صوتها أمام الغضب الأسود في وجهه.

وتمتم: «كان يجب ان اعرف هذا من قبل. لأن الفائدة من مثل هذه المكيدة واضحة جداً.»

لم تفهم تشارلي ما يعنيه. يبدو أن بول لا يعرف الحقيقة تماماً. وسألته: «الفائدة؟ اسمع. انني لا أدري لماذا كل هذا الغضب والاهتمام، إذا كنت قد علمت أنها لم تكن خطبة حقيقية، إذاً...»

جفت الكلمات في حلقها مرة أخرى، انه لم يعلم ان الخطبة لم تكن حقيقية، إذاً، انها لم تظن ان بول سيزيد غضبه. ولكن وجهه الآن قد زاد توتر ملامحه. وفجأة شعرت بالبرودة وكأن الدم قد استحال في عروقها ثلجاً.

وقال من بين اسنانه: «لم تكن خطبة حقيقية؟ أيتها الحقيرة. انك اسوأ مما ظننت.»

قالت: «لا تنعتني بصفات لا استحقها... لقد كان ذلك لغرض مفيد جداً.»

قال بسخرية كحد السكين: «آه، انني متأكد من هذا. لمن فائدة هذا الغرض يا ترى؟ ابن الخالة برايان، وأنت طبعاً. انكما لن تدعيا أن ذلك كان لمصلحة العمة اميلي.»

قالت: «طبعاً كان ذلك لمصلحتها، لقد أردنا اسعادها.»

«اسعادها؟» وانفجر بول بضحكة خشنة ساخرة وهو يتابع: «ان عندك فكرة غريبة جداً عما يمكن ان يوصف بالغرض المفيد جداً. كيف تقولين انك اردت ان تسعديها، بينما تخدعينها متعمدة... بينما تكذبين عليها... على امرأة مريضة ميؤوس منها؟»

قالت: «كان هذا فقط لأننا ظننا أن هذا سيسرها. لقد كانت تواقة لأن ترى أحدكما متزوجاً قبل ان تموت. وقد وافقت أنا على ذلك لأنها كانت مريضة جداً. وعندما انظر الآن إلى تلك الفكرة، ربما لا أراها حسنة. ولكن، في ذلك الحين، لم نكن نعلم أنها ستتحسّن. لقد أردت أن أجعل أيامها القليلة الأخيرة كأسعد ما يمكن.»

ردد بول كلامها متهكماً: «أردت أن اجعل أيامها الأخيرة كأسعد ما يمكن. يبدو عليك الاخلاص حقاً. لو لم اكن اعرفك جيداً لأوشكت ان اصدقك ولكن هذا لا يبدو حقيقياً، يا حبيبتي، عندما اعلم بالضبط كم ستربحين من هذه اللعبة الصغيرة الرقيقة... من هذه المحاولة لجعل عمتي سعيدة. اخبريني إذاً، ما هي الفائدة التي قدمها لك برايان... كم بالمئة سيرث بعد ان تموت عمتي؟»

ها هي ذي ومرة أخرى، تلك الكلمة «الفائدة».

أجابت: «انني لا أدري ما الذي تتكلم عنه.»

مرة اخرى، انفجرت ضحكته الساخرة تبدد سكون الغرفة، ليقول: «كلا بالطبع، هل تحاولين حقاً ان تخبريني انك لا تعرفين؟ وان برايان لم يخبرك ان العمة اميلي وعدت بأن تترك المنزل النهري لمن يتزوج أولاً؟ ولم يستطع

برايان أن يتدبر أمر عروس يحضرها إلى جانب سرير عمته، ليتأكد من وراثته للمنزل، ولكنه حصل على افضل ما يستطيعه، وهو خطيبة حاضرة.»

قالت: «انني لا اصدقك.»

لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لا يمكن ان يستعملها برايان بهذا الشكل. ولكن، ألم تكن الآنسة اميلي تردد على الدوام، أنها حلمت مرة أن المنزل النهري قد عاد منزلاً لأسرة، مرة أخرى، يركض في انحائه الأطفال كما كانوا يفعلون عندما كانت هي فتاة صغيرة؟

قالت: «انك تكذب. ما الذي سيفعله برايان بالمنزل النهري؟ ان له بيته الخاص في نورويش، وهو كذلك لا يحب منطقة يوركشاير فهو، بالتأكيد لا يحب السكن هنا.»

قال بخشونة: «تماماً، ولكنه يعرف مجموعة تدير فنادق ريفية صغيرة خاصة، وهم دوماً يبحثون عن البيوت القديمة فيشترونها ثم يحيلونها إلى مشاريع تجارية. لا تخبريني بأنك لم تسمعي بمجموعة التنقيب.»

قالت: «أوه...»

مجموعة التنقيب... تلك الاتصالات الهاتفية لبرايان... ردة الفعل الغريبة التي ازعجتها منذ حين... وشعرت تشارلي بوجهها يشحب. لا شك ان قلب مخدومتها سينكسر عندما تعلم ان المنزل الذي عاشت فيه اسرتها اكثر من مئة وخمسين سنة، قد بيع ليتحول إلى فندق.

قالت: «كلا... لا يمكنني أن اقول ذلك.»

وأدركت، متأخرة، أن شحوبها، ومظاهر الصدمة عليها، من الممكن أن يفسر بطريقة اخرى، وبالنسبة إلى شخص

متحيز ضدها مثل بول، قد يبدو ذلك شعوراً غير ارادي بالذنب، او ادراكها أن امرها قد انكشف، وأنه يعرف اكثر مما تظن، وجاءت ابتسامة بول البطيئة الظافرة لتؤكد مخاوفها.

وسألته: «هل تظن حقاً أنني يمكن أن افعل ذلك لأجل المال؟»

هز كتفيه قائلاً: «في الواقع، لقد تساءلت أمس عما إذا كنت أنا قد ظلمتك بظنوني. فقد بدوت حقاً مهتمة بعمتي اميلي. وبدوت حقاً غاضبة لدى ظني بأنك تستغلينها. ولكن، هذا الصباح، عندما أدركت مؤامرتك مع برايان لتخدعي امرأة تموت، فقط لكي يرث هو المنزل النهري...»

فجأة، اشرقت الحقيقة في ذهن تشارلي. لقد فضحت بول لهجته، ان الشيء الذي يهمه حقاً، هو ظنه بأن برايان قد يرث المنزل النهري بينما هو يريده لنفسه. ولم يكن هذا لأجل الآنسة اميلي او سعادتها ابداً، ولكن ابني الخالة الطماعين يتقاتلان على الميراث كما تتقاتل الكلاب على عظمة... وهذا كله أثناء حياة عمتهما. وشعرت بالغثيان وبالمرارة في حلقها.

وقذفت بوجه بول هذه الكلمات وعيناها العسليتان تقدحان شرراً: «انتما الاثنان، شخصان منافقان. انني مشمئزة منكما.»

رد عليها قائلاً: «انه شعور متبادل.» فثار غضبها حتى اعماها عن التعقل، فرفعت يدها تهوي بها على وجنته.

صرخ فيها: «لماذا؟ انك...»

وقبض على معصمها، بقبضته القوية المؤلمة، يجرها نحوه، وحاولت هي التملص منه بهياج بالغ، ولكن جهادها كان عبثاً ازاء قوته البالغة.

قال ينذرها: «هيا، اهدإي، ايتها السيدة.» ولكنها لم تبال

به، ورفسته على كاحليه بعنف، وشعرت بشيء من الارتياح عندما سمعته يتأوه من الألم.

قالت: «اتركني او اصرخ ليسمعني الجيران جميعاً.»

قال باختصار: «إذا صرخت، فسأسكتك حالاً.»

قالت: «كيف؟» ومات السؤال على شفتيها وهي تقرأ الجواب في وجهه.

لم تستطع تشارلي قط ان تفسر ما الذي اعتمل في نفسها عند ذلك. لقد هتفت بها كل ذرة منطق تملكها، وكل ما يتعلق بصيانة الذات، أن تبقى صامتة فلا تستثيره، ولكنها اصرت على تجاهل هذا التحذير. فمالت برأسها إلى الخلف وفتحت فاها لتجد راحة بول تسده بينما جذبها إلى احضانه باليد الأخرى.

لم يكن لها أن تلوم سوى نفسها، فقد توقعت شيئاً كهذا.

وتصلب جسدها، في محاولة للمقاومة مالبثت أن انهارت وقد سرت فيها الرغبة كما سرت الحرارة في شرايينها، واستكان جسدها إليه، ليرخي هو قبضته اخذاً إياها بين ذراعيه بينما رفعت هي ذراعيها الآن تحيطان بعنقه وهي تهمس: «بول.»

وكان صدى صوتها كان ماءً بارداً سكب فوقه فاعاده إلى واقعه، مشتتاً الرغبة التي شملتهما معاً، فانتزع نفسه منها مبتعداً، بينما صرخت هي بيأس وهي تتراجع إلى آخر الغرفة.

صرخ في وجهها: «تباً لك، ماذا فعلت بي؟»

ردت عليه هي: «ماذا؟ هل... أنا...؟» ولم تعرف ماذا تقول. فقد كان عقلها مضطرباً بالخيبة والألم شاعرة بنفسها تتمزق أشلاء.

قال لها وقد تمالك نفسه نوعاً ما: «ما هذا يا شارلوت؟ هل وصل بكِ الأمر إلى هذا الحد؟»

كانت لهجته الشرسة تكشف عن مدى الجهد الذي يبذله ليضبط انفعاله.

ما أن اخذت تشارلي تحدق فيه مبلدة لا تفهم شيئاً، غير قادرة على أن تسأله عما يعنيه بقوله هذا، حتى دس اصابعه في شعره المشعث وقد بدا عليه الاشمئزاز وهو يقول: «الا يكفيك ابن خالة واحد؟ أم انك من اللهفة إلى اموال العمة اميلي بحيث لا يهمك أياً من ورثتها ستخرجين معه؟»

شعرت تشارلي وكأن كل المشاعر المرة التي انتابتها منذ دخل هذا الرجل حياتها، قد كونت كتلة في حلقها لم تكد معها تستطيع الكلام، وأخيراً، استطاعت ان تقول: «انني لا أقبل ان أخرج معك ولو كنت آخر رجل على وجه الأرض.»

قال: «هذا، مرة أخرى، شعور متبادل. والآن، أخبريني، كم تريدين لكي تتركي العمة اميلي؟»

ونظرت إليه تحاول ان تفهم ما يعنيه، ثم ما لبث الادراك ان اشرق في ذهنها. انه يعتقد ان في امكانه شراءها. وقالت متصنعة قسوة لا تشعر بها حقيقة: «ليس في إمكانك ان ترضيني. حتى ولو أمكنك ذلك، فإنني لن أمس قرشاً من أموالك.»

وتلاشت ابتسامة بول، وامتزج في عينيه التهديد والانتصار البارد وهو يقول: «إذاً، عليّ ان أجد طريقة أخرى للتخلص منك لأنني، صدقيني يا شارلوت العزيزة...»

وبدا السم في لهجته وهو يستبدل جملة عمته هذه الرقيقة، بتعبير الكراهية وهو يتابع، «اريدك ان تخرجي من حياة عمتي ولا يهمني ما أفعل في سبيل تحقيق ذلك.»

الفصل السادس

كانت تشارلي تعبر القاعة تلك المساء، عندما تصاعد رنين الهاتف فتناولته لتسمع صوتاً يقول: «كيف حال ابنتي المفضلة؟»

وهتفت هي بسرور: «عمي هاري؟ ما أجمل أن اسمع صوتك. انني بخير.» كان في صوتها رجفة خفيفة تمنت أن لا يلحظها، وذلك نتيجة لما حدث بعد ظهر هذا اليوم. ولم يكن وصفها نفسها أنها بخير، لينطبق على ما تشعر به والذي لم يكن سوى التعاسة. وتابعت تقول: «ان أبي يستمتع باشعة الشمس. انه لا يتذكر آخر مرة خرج فيها ليرسم كل نهار في شهر أيار... لقد أرهق نفسه في العمل حقاً و...»

«حسناً إذن، أظنه في حاجة إلى فرصة للراحة. وهذا هو سبب اتصالي به، هل يمكنك أن تناديه؟»

أجاب: «طبعاً. إبق على الخط.»

وضعت السماعة على الطاولة، وأدارت رأسها تنادي أباها: «انه عمي هاري، يا أبي، وهو يريد ان يتكلم معك.»

كان أبوها مستغرقاً في حديث عميق مع بول، فرفع بلطف الهر، النائم على ركبتيه، ثم وقف قائلاً: «دقيقة واحدة يا بول.»

قالت الأم لبول: «ان هاري ليس عمها، حقيقة، بل هو صديق قديم كان شاهد زوجي يوم عرسنا، ولهذا تناديه عمي.» قاطعتها تشارلي: «لا أظن السيد ساريزن يهتم بمثل هذه الأخبار، يا أمي.» كانت تعلم أن كل آلامها هي نتيجة

تفكيرها بأن بول يعلم كل شيء عنها وعن أسرتها مما جعل عنده هذه الفكرة المخيفة عنهم.

قال بول بلطف: «بل يهمني أن اعرف الكثير عنكم.»

لم يكن غيرها يفهم ما يعنيه. وكرهت الطريقة التي كان يجلس فيها مسترخياً في مقعده المخملي الرث، وعلى ركبتيه هر آخر. وفي أثناء الوقت الذي امضاه بينهم، عرفت أن والديها قد احباه كثيراً، ولكنهما لم يكونا يعرفان الحقيقة. وليس عندهما أية فكرة عن الخداع الذي يمارسه، وكيف تخفي ابتسامته الساحرة، وحديثه الممتع، عقله البارد المنظم، الذي يلاحظ كل شيء عنهم ليحتفظ به. كانا يظنانه مستأجراً طيباً في الوقت الذي كان فيه مجرد جاسوس، يفتش عن أشياء ليستعملها كبراهين ضدهم.

وسألها بول: «منذ متى أنت متزوجة يا فال؟» وعبست تشارلي لاستعماله اسم أمها، فقد أصر عليه والدها أن لا يستعمل الرسميات معهما في المخاطبة، مثل السيد والسيدة هارينغتون، لقد دخل قلبيهما بخفة الأفعى.

أجابت الأم: «ان ذكرى زواجنا الفضي سيكون في تموز -يوليو - وهي الذكرى الخامسة والعشرون.» ثم اطلقت فال ضحكة سخيفة.

سألها: «انكما، طبعاً، ستحتفلان بالمناسبة؟»

أجابت: «آه، اننا لا نحتفل بشيء.. لا تقفي عند الباب هكذا، يا عزيزتي تشارلي... هل ستدخلين أم لا؟»

قال بول: «صحيح. لماذا لا تجلسين معنا، يا شارلوت انك تبدين مشغولة منذ تناولنا الشاي، لا بد انك متعبة.»

وزاد عبوس تشارلي إلى درجة خشيت معها أن تلاحظ

أمها ذلك فتسألها عن السبب، فأسرعت تلطف من أسارير وجهها وهي تدخل الغرفة لكي تتجنب أية اسئلة أخرى من أمها، ولم تفتها شبه الابتسامة الساخرة التي لاحت على شفتي بول وهو يلاحظ ارتباكها وغضبها المكبوت. انه يعلم تماماً السبب في محاولتها شغل نفسها منذ عودة أبويها إلى المنزل، بعد عشر دقائق من انتهاء المشهد الذي دار بينها وبينه في غرفة الجلوس. لم تكن تريد ان تفكر في الذي جرى بينهما، والأسوأ من كل ذلك، الطريقة التي تصرفت بها. وهكذا وجدت لنفسها عملاً بعد آخر مما أبقى ذهنها مشغولاً فلا يستعيد مشهدها بين ذراعي بول مما جعلها تشعر بالغثيان لهذه الذكرى.

تابعت فال حديثها: «ان هدية يوبيل زواجنا الفضي سيكون تجديد الأسلاك في هذا البيت، وهذه ليست هدية شاعرية تماماً.»

تمنت تشارلي لو لم تكن أمها بهذه الصراحة في اعلان حاجتهم، إذ ان آخر شيء يحتاجه بول، هو معرفة المزيد من تفاصيل صعوباتهم المالية. وبنظرة إلى ابتسامته المتهكمة، استطاعت ان تعرف تقريباً، ما يدور في ذهنه وهو يستوعب المعلومات التي يسمعها.

سألته تشارلي: «وماذا عن اسرتك أنت؟» وجهت إليه هذا السؤال ليس فضولاً منها، بل رغبة في تحويل مجرى الحديث إلى ناحية أقل ازعاجاً لها. وتابعت: «انك لم تخبرنا بالكثير عن نفسك. ثم ان اسمك، ساريزن، ليس بالاسم الشائع.»

أجاب بول ببساطة: «انه ليس اسماً انكليزياً.» وألقى عليها نظرة يفهمها بها أنه يعرف سبب تحويلها دفة الحديث هذا، وأنه

يجيبها عن سؤالها فقط لأنه شاء هو ذلك. وتابع قوله: «كان أبي كندياً فرنسياً، من كويبك حيث امضيت أنا حداثتي عندما لم نكن نسافر. وكان أبي كاتباً جوالة، وقد امضى قسماً كبيراً من حياته متنقلاً. كنت، وأمي، نسافر معه.»

قالت فال برقة: «انك تتكلم بصيغة الماضي.»

فأوما برأسه قائلاً: «لقد توفي والداي عندما كنت في الثالثة عشرة، كانت أمي تسبح عندما اوشكت على الغرق، وحاول أبي انقاذها فلم يفلح، فغرقا معاً. وبعدئذ، جئت إلى انكلترا وعشت في بيت خالتي، أسرة برايان.» ورفعت تشارلي، عند ذاك، رأسها بسرعة، ذلك انها لم تعرف ذلك من قبل.

وتابع هو: «لقد اخذتني خالتي وزوجها إلى منزلهما، وقد ارادت عمتي اميلي أن تعتني بي، ولكنهما اعتبراها اكبر سناً من أن يمكنها ذلك. بينما كان عندهما غلام يكبرني بسنتين.»

لقد كشف صوته ما كان يشعر به نحو ابن خالته ذلك الحين. وتساءلت تشارلي عما إذا كانت العداوة بينه وبين برايان، قد نمت في ذلك الوقت، منذ عشرين سنة مضت. واقشعر جسدها وهي تتذكر نوع اللقاء الذي كان بينهما، ذلك اليوم.

سألته فال: «كم من الوقت أمضيت معهم؟»

هز بول رأسه بسخرية لاذعة وهو يقول: «تقريباً ستة اشهر. إذ أثناء ذلك، فتحت وصية والديّ التي ظهر منها أن في إمكاني ان اذهب إلى مدرسة داخلية. ومن هناك، ذهبت إلى الجامعة، ومنها إلى أول وظيفة لي في لندن.»

سألته: «ولكنك، بالطبع، كنت تعود إلى بيت خالتك في العطل المدرسية؟»

وأدركت تشارلي ما الذي تفكر فيه أمها. فهي، لحبها العميق لأسرتها، لم تكن تصدق أن ثمة اناساً لا يمتلكون نفس المحبة والمشاعر الدافئة مثلها هي. وهي كذلك، لم يسبق ان شاهدت بول وبرايان معاً في المستشفى، وإلا لأحزنها الأمر جداً.

أجاب هو باقتضاب: «مرة واحدة فقط.» ودهشت تشارلي إذ رأت في عينيه نظرة غضب وحشي وهو يتابع: «ولكنني، بعد ذلك، كنت امضي اغلب أوقاتي مع العمة اميلي.»

أرادت تشارلي أن تسأله عن السبب الذي جعل خالته وزوجها يرفضان اقامته معهم بعد ذلك ولكن النفور الذي بدا في لهجته اسكتها. وحاولت ان تتصوره مراهقاً في الثالثة أو الرابعة عشرة، داكن الشعر متألق العينين ذا طبيعة متهجمة، ولكن، سرعان ما تحول انتباهها إلى أبيها عائداً إلى غرفة الجلوس وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وهو يقول مخاطباً زوجته: «احزمي حقائبك، يا سيدة هارينغتون، فأنت ذاهبة في إجازة.» وكانت التشويق بادياً في صوته.

هتفت فال غير مصدقة: «إجازة؟ ما الذي تتحدث عنه يا جيري؟»

أجاب: «ألا تفهمين اللغة الانكليزية يا امرأة؟ انها إجازة... إجازة في البرتغال.»

«البرتغال؟ أوه.»

التوى قلب تشارلي ألماً وهي ترى الاشراق يعم وجه أمها، ثم لا يلبث أن يتحول إلى خيبة أمل وهي تتابع قائلة: «انني اعرف انك تمزح، فنحن لا نملك تكاليف رحلة كهذه... لا باس.»

كانت تشارلي تعلم حلم أمها الدائم في السفر إلى

الخارج... هذا الحلم الذي لم يتحقق قط. كما أن البرتغال هي البلد الذي كانت تتوق إلى زيارته اكثر من سواه.

عاد الزوج يقول: «ولكن الأمر مختلف الآن، فهذه الرحلة لن تكلفنا شيئاً ما عدا انفاق النقود هناك.»

قالت: «اخبرني الحقيقة يا جيري، لا تحيرني.» وجلس والد تشارلي على ذراع مقعد زوجته وأخذ يدها بين يديه، ونظر في اعماق عينيها وهو يقول: «كان هاري يكلمني في الهاتف، كما تعلمين. وهو وآن قد استأجرا شقة في ألغارف، وهما يريداننا أن نمضي شهراً هناك يكون بمثابة هدية مبكرة ليوبيل زواجنا الفضي، وهما سيدفعان ثمن تذاكر السفر. وهكذا، كما قلت، كل ما نحتاجه هو بعض النقود للمصاريف النثرية هناك.»

قالت أمها: «أوه، يا جيري. ما أروع هذا.» وتألقت الدموع في عيني تشارلي وهي ترى البهجة التي كست وجه أمها. لقد كافحت أمها طويلاً في حياتها الزوجية الشاقة، محاولة جهدها، ان تعيش ضمن دخلهما المحدود. فهي تستحق شيئاً من المتعة.

وسألت الأم زوجها: «متى سنذهب؟»

أجاب: «الخميس القادم.»

قالت: «الخميس.. لن أكون جاهزة لهذا.. انني... أوه.»

وتلاشت السعادة في وجهها، ليبدو شاحباً ممتقعاً. لقد تحولت عيناها المتسعتان المصعوقتان نحو بول الذي كان مسترخياً في كرسيه كشاهد صامت لما يجري.

قالت: «ولكن... اننا لا نستطيع... لا نستطيع أن نذهب ونترك السيد ساريزن.»

فكرت تشارلي في أنه لو كان بول يملك أدنى احساس، لانبرى قائلاً ان في إمكانهما، بالطبع، ان يسافرا، وأنه سيجد لنفسه مكاناً آخر يقيم فيه. ويكفي وجوده غير المستحب في هذه اللحظة العائلية الخاصة، وهو بالتاكيد، لن يبقى مقحماً نفسه اكثر من ذلك.

سمعت بول يقول بهدوء، متجاوباً مع افكارها، مبدداً، بابتسامته، هم فال وكدرها: «طبعاً يمكنكما الذهاب. ويجب أن لا تفكرا بي أبداً، إذ ليس ثمة مشكلة على الاطلاق، فإن في إمكان شارلوت أن تهتم بكل شيء.»

وهتفت شارلي دون تفكير: «أرأيت يا أماه؟ ان الأمر بسيط تماماً. يمكنكما الذهاب إلى البرتغال و...»

هنا انجلت لها حقيقة ما قاله بول الذي كان له فعل المطرقة على رأسها مما جعل عقلها يهتز تحت الضربة. وأدارت نحو بول عينين عسليتين حائرتين وهي تسأله دون أن تستطيع اخفاء شعورها: «يمكنني أن افعل ماذا؟»

قابل بول نظرتها الثائرة بابتسامة ساخرة قائلاً برقة مصطنعة: «أن تعتني بي. أليس كذلك، يا شارلوت؟»

تساءلت تشارلي عما إذا كانت هي الوحيدة التي امكنها أن تلمس سخريته المبطنة، والناحية السوداء من حديثه، وتابع هو قوله: «انني متأكد ان في استطاعتك القيام بكل احتياجاتي، وعلى كل حال، فإنني لن احتاج اكثر من الخدمة التي كنت تؤدينها لعمتي اميلي.»

أرادت تشارلي أن ترد عليه بسؤاله عما إذا كان يعني العمل الذي لا يراه مستحقاً الراتب الذي تقبضه.. ولكنها

عضت شفتها لكي لا تتفوه بمثل هذا الجواب الغاضب وهي ترى أمها تستدير نحوها والرجاء يلتمع في عينيها وهي تسألها: «هل تمانعين في هذا يا عزيزتي؟ وعلى كل حال، فإن الآنسة ماكنزي لا تحتاجك كثيراً هذه الأيام.»

انتفضت تشارلي في سرها، وهي تشعر، بابتسامته دون ان تنظر اليه لدى سماعه هذا الكلام. تبأ له لماذا جاء إلى بلدة بارفورد ليعقد المسائل كلها، ويقلب حياتها رأساً على عقب؟

قالت: «انني...» ارادت ان تعلن ان ليس في إمكانها العناية ببول ساريزن لأي سبب. فهي، قبل كل شيء، لا تريده في منزلهم. لقد لمست صعوبة التعامل معه في وجود ابويها الذي كان يلطف من ذلك، ولكن فكرة وجودهما بمفردهما في المنزل، لم تكن تسرها قط.

قال أبوها يقنعها: «سيكون ذلك لمدة أربعة أسابيع فقط هي مدة غيابنا.»

أضاف بول: «وأنا اعدك أن لا تري مني أي ازعاج لك.» كان في تصنعه الرقة والإذلال يثير اعصابها فتمنت لو تستدير نحوه لتصرخ به أن يخرس لأن هذا ليس من شأنه.

تمتمت قال حالمة: «لطالما تمنيت ان أرى البرتغال... ولشهر كامل!»

تنهدت تشارلي في سرها وهي تعترف بالهزيمة. ان شعورها نحو هذا الأمر ليس مهماً، فهي لا تستطيع ان تخيب آمال أمها، وذلك بأن ترفض مسؤولية العناية بالضيف المستاجر هذا. وعلى كل حال، ما هو الجهد الذي ستبذله في العناية بهذا الرجل؟ انه فقط تحضير وجبات طعامه، وغسل ملابسه، وتنظيف المنزل. وهذه هي واجبات

المسؤولة عن المستأجرين، عادة. وعندما عاد إلى ذهنها قول بول «ان في استطاعتك القيام بكل احتياجاتي» لم تهتم به. الطعام والمنامة هما ما دفع أجرته وهذا حقه.

قالت أخيراً: «سأقوم بذلك طبعاً... وهذا يسعدني.» وتمنت ألا يبدو في صوتها أثر لما يدور في داخلها من صراع، لكنها شعرت بأن صوتها ينم عن تصنعها الاخلاص عندما رأت بول يرفع حاجبه ساخراً لدى سماعه كلامها هذا وعادت تقول تخاطبه: «طبعاً سأهتم بما...»

وقالت تخاطب أمها: «انني، طبعاً، ساعتني بكل ما تريدين اكراماً لك إذ لا يمكن ان تضيعي مثل هذه الفرصة الرائعة التي سنحت لك، فلا تقلقي من ناحية أي شيء، لأن كل شيء سيكون على ما يرام.»

من التي كانت تقصد اقناعها، بكلامها هذا؟ أمها أم نفسها هي؟ وأضافت: «يجب ان تردي على عمي هاري حالاً وتخبريه أن الأمر قد استقر على هذا الأمر.» وأمسكت بوالديها توقفهما ثم تدفعهما نحو القاعة حيث الهاتف، وهي تضيف: «وعلى كل حال، فإن السيد ساريزن هنا لمدة اسبوعين فقط.»

جاءها صوته من خلفها يقول بهدوء: «في الواقع، هي خمسة اسابيع.» وتجمدت هي في مكانها من تأثير الصدمة.

بعد لحظة، عادت تفكر بهدوء، فاغلقت باب القاعة خلف والديها بعناية، ظاهرياً لكي تعطيهما الفرصة للحديث كما يشاءان، بينما داخلياً، كانت تريد أن تخفي عن مسامعهما انفعالها وهي تستدير نحو بول تسأله بحدة: «ماذا قلت؟»

رد عليها بابتسامة زادت من غيظها: «ألم تخبرك أمك؟»

قالت: «تخبرني بماذا؟» كانت متأكدة من أن جوابه لن يعجبها. عرفت ذلك من التعبير الذي بدا على وجهه، وكذلك من ابتسامته الخبيثة.

وتمدد بول في مقعده متكاسلاً، مشبكاً يديه خلف رأسه وهو يجيب: «لقد صممت على البقاء لمدة اطول، فإنني مسرور في هذا المكان الذي يختلف عن...» وتوقف فجأة عن اكمال جملته ليعود فيقول: «كما ان والديك اكرماني جداً.»

قالت بنفس الحدة: «لا بد ان عندك اجازات متراكمة دون نهاية.»

قال: «هذا صحيح. ولهذا فكرت في البقاء اسبوعين آخرين.»

قالت: «كنت أظن ان شخصاً مثلك لا بد ان يفضل مكاناً أكثر تطوراً لقضاء إجازاته.»

أجاب: «هذا يعني أنك لا تعرفينني، أليس كذلك؟»

كان في صوته، وهو يقول ذلك، شيء مس مشاعرها. ما الذي كان يريد ان يقول؟ وما الذي أضفى تلك النبرة المؤلمة على صوته؟

وعاد يقول: «صدقيني انني سعيد جداً هنا. فغرفتي مريحة، والطعام لذيذ...»

قاطعته: «ليس في إمكاني ان أجيد الطبخ مثل أمي.»

كانت تشارلي تعلم أنها كالغريق الذي يتمسك بالقشة، ولكنها لم تعرف بماذا تجادله. ذلك أنها قبلت البقاء معه اقل من ثلاثة أسابيع وحدهما، أما ان يتضاعف هذا الوقت، فقد كانت فكرة لا تحتمل.

هز بول كتفيه بعدم اكتراث قائلاً: «انني متأكد من أننا

سنعالج الأمر. ثم أن الطعام ليس الشيء الوحيد الذي احتاج، فأنا متأكد من ان عندك مهارات أخرى... تريحني.»

فسألته: «مهارات؟»

تذكرت ما حدث في غرفته بعد الظهر، ولأنها كانت متأكدة من أنه يتذكر ذلك ايضاً، أجج غضبها تلميحه الفظ إلى ذلك، في قوله مهارات، ومن الطريقة التي جالت بها نظراته الباردة من وجهها المتوهج سخطاً، إلى قوامها الممشوق في الجينز والقميص المقفول، متمعنة في تفاصيل جسدها، مما زاد في سخطها.

سألته: «اخبرني بما يجول في رأسك، بالضبط يا سيد ساريزن.»

تعمدت النطق باسمه العائلي لكي تجعل بينهما حداً، ولكي تبعد عن ذهنها ذكرى ما سبق وجرى بينهما، وعادت بأفكارها إلى الواقع. لقد سمحت لنفسها بالاستجابة إلى استفزازه لها، بسهولة والشيء الذي اقلقها حقاً، تعمده ذلك إذ كان يشعر بتضايقها منه.

قال: «انني متأكد من استطاعتنا التصرف بالنسبة لبعض الأشياء. وأظن اننا اتفقنا على ان تناديني باسمي بول.»

لم تعد تشارلي تهتم بارتفاع صوتها وهي تقول بحدة: «لقد اتفقنا على شيء واحد فقط. لقد سبق وقلت انك ستمكث هنا شهراً واحداً فقط مر منها ثمانية أيام، وأظن ما بقي هو...»

قاطعها بهدوء وكأنه يفسر الأمر لصبي غبي: «ولكنني قلت انني قد غيرت رأيي. وقد تقرر الأمر ووافقت أمك.»

قالت: «حسناً، انني المسؤولة الآن. وأنا لن أوافق على

اكثر من ثلاثة اسابيع.» لقد شعرت بانها يجب أن تكون حازمة حتى تستطيع ان تحتمل وجوده حتى بالنسبة لهذه الأسابيع الثلاثة.

سألها: «هل هذا هو قرارك الأخير بالنسبة لهذا الموضوع؟»

أجابت: «تماماً.»

فبانت على وجهه الخيبة وهو يقول: «آه، يا للأسف.» وهز رأسه وهو ينزل الهر عن ركبتيه بلطف، ثم يهب واقفاً.

وحالاً، تمنت تشارلي لو لم يفعل. فهو، في جلوسه، لم تكن لتهابه كثيراً، فيما عدا ما يسببه لها من تشوش في ذهنها، ولكنه، عندما وقف، بدا وكأنه ملأ الغرفة، وفارق الطول البسيط بينهما بدا الآن أكثر وأكبر واعظم بحيث ظهر وكأنه يشرف عليها بشكل مخيف، وقال وهو يتجه نحو الباب، بتلك اللهجة الآسفة بسخرية: «إذاً فإن عليَ أن اطلب من أمك أن ترد إليَ نقودي.»

فصرخت فيه بحدة: «انتظر لحظة. أية نقود تعني؟»

أجاب ونظراته الساخرة تفصح عن أنه كان يعلم أن كلامه هذا سيجذب اهتمامها: «انه إيجار الأسابيع الثلاثة الزائدة. لقد دفعتها أمس مقدماً عندما سألت عما إذا كنت استطيع البقاء هنا. فانا أريد استعادتها إذا أنت لم تقبلي ببقائي.»

قالت بذعر وهي ترى يده على مقبض الباب: «لقد فهمت، لقد فهمت، كلا... انتظر. هل قلت انك دفعت مقدماً؟» كان صوتها الآن قد تدنى إلى درجة الهمس.

أجاب: «لقد اعطيت أمك أمس صباحاً شيكا بالمبلغ.»

وأمها، كما تعلم، قد ذهبت إلى البنك أمس بعد الظهر، وذلك الشيك لا بد قد صرف ليعزز دخلهم المتواضع، وأمها

ستكون في حاجة إلى كل قرش منه لتنفقه في تلك الرحلة، وإذا كان عليها أن تعيده إليه...»

تنهدت من اعماقها وهي تفكر في أن أي نكر لاسترجاع تلك النقود، فإن أمها سترفض السفر تماماً إلى البرتغال بسبب عدم امكانها الاتفاق على نلك. وهي، تشارلي، مرغمة، لهذا، على ان تقبل ببقاء بول تلك الأسابيع الزائدة، فهذا واجبها، من ناحية، ثم انها، إذا هي لم تشأ تسلم مسؤولية بول في غياب والدتها، فإن هذه الأخيرة لن تخلف وعدها له وستبقى حتماً، لأجله مضحية لذلك، بحلم عمرها.

تمتمت وهي تشعر انها وقعت في الفخ: «يمكنك أن تبقى.»

أجاب: «عفواً لم اسمعك تماماً.» وصرت هي على اسنانها غيظاً للتهذيب الزائف الذي غلف به لهجته، ودست يديها بشدة في جيبي سروالها تمنعهما من توجيه صفعة إلى وجهه. فقد سبق وجربت من قبل ما يقود إليه هذا التصرف، وفي مرة واحدة، الكفاية.

وقالت بصوت مخنوق: «قلت يمكنك البقاء. لقد دفعت، بالأمس، أجرة الطعام والمنامة وهذا فقط ما ستحصل عليه.»

أضافت في سرها ان هذه هي واجبات صاحبة الايجار وهي ما ستنفذها، فالطعام والمنامة هما فقط ما عليها تقديمه له، فليس عليها تقديم مرافقة أو محادثة أو أية مهارات أخرى كما لمح في حديثه.

شعرت بالارتياح وهو ينزل يده عن مقبض الباب وهو يقول: «هذا حسن جداً. انني مسرور لتغييرك رأيك. فإن من الصعب إيجاد مكان آخر اقيم فيه.» ورمقها بنظرة ساخرة وهو يتابع قائلاً: «ظننتك ستسرين لبقائي.»

قالت: «وما الذي يجعلني اسر ببقائك؟»

أجاب: «لأنك انت التي قلت انني يجب أن أبقى بجانب عمتي مدة اطول.»

وهذا كان صحيحاً. فهذا ما لا تستطيع إنكاره. وشعرت تشارلي وكأن البساط قد سحب من تحت قدميها. وادركها الفزع وهي تعلم انها، في كل مناقشاتها لم تضع مخدومتها في حسابها. منذ اللحظة التي اعلن بول فيها أنه سيبقى، لم تفكر إلا في نفسها وفي تأثير ذلك عليها. كيف امكن ان تكون بمثل هذه الأنانية؟ لقد كانت تعتقد ان أمر السيدة العجوز يهمها، ولكنها، بدلاً من ذلك، لم تفكر حتى في مشاعرها، بالنسبة لهذا الأمر. كيف أمكن بول أن يؤثر على توازنها العقلي مما أدى إلى تصرفها بهذا الشكل.

وتابع: «أم انك لم تكوني تفكرين بها؟» تبأ له! هل تراه كان يقرأ أفكارها؟ هل في إمكان هاتين العينين الفاحصتين أن تنفذا إلى اعماقها لتسبرا ما تفكر فيه؟

أجابت: «لقد فكرت فيها طبعاً! إن أمر الآنسة اميلي يهمني جداً و...»

ذبل صوتها وهي ترى حاجبيه يرتفعان بتساؤل ساخر: «لماذا إذاً لم تعودي تكثرين من زيارتها في المدة الأخيرة؟ لقد اخبرتني ان هذا اليوم كان الأول منذ اكثر من اسبوع.»

أجابت: «لقد ظننت انها تفضل أن تمضي الوقت معك.»

مرة اخرى، رفع حاجبيه متسائلاً عن صحة ما تقول، لتدرك ان عقله الساخر، من خلف عينيه الثاقبتين، قد حكم عليها بالادانة بعدما وجدها مذنبة ولو بشاهد صغير في الحقيقة.

المشكلة كانت في أن جوابها حوى جزءاً من الحقيقة فقط. فقد فكرت حقاً في أن الاقلال من زياراتها لعمته تمنحها فرصاً اكثر للبقاء معه، وهي الشديدة الولع به. ولكن، هناك ناحية أخرى من الأمر، وهي التي لا تستطيع ان تشرحها له، وهي خجلها من مواجهتها مع وجود تلك الخطبة الملفقة بينهما، تثقل ضميرها، وتمنت لو انها استطاعت اقناع برايان بالسماح لها بمكاشفتها بالحقيقة بنفسها في نهاية هذا الأسبوع.

سالها: «ألا تظنين أن الراتب الذي تدفعه لك عمتي يستحق منك اكثر من زيارة واحدة في الأسبوع؟»

إذاً، فهو مازال يلح على إثارة هذا الموضوع؟ وثار الغضب في نفسها وهي تفكر في أنه عاد إلى الظن بأنها خداعة محتالة.

نظرت إليه بعينين تقدحان شرراً وهي تقول: «كيف تعيرني بالاقلال من زياراتي لعمتك، بينما أنت لم تشأ أن تضحي من وقتك بفرصة ترسل لها فيها ولو برقية، منذ اسبوعين؟ أم أنك كنت تظن إذا أنت لم تفعل شيئاً، فهي ستموت بهدوء ليأتيك الإرث دون أي مجهود من ناحيتك؟ لا بد أن الغيظ قد اشتد بك وأنت تراها في طريق الشفاء مما يتوجب عليك معه زيارتها.»

لقد اسرفت، فعلاً، في تجاوز حدودها بتلك الجملة الأخيرة. ولقد ادركت هذا منذ رأت ملامحه تتجهم والغضب يطل من عينيه وهو يقول: «لو لم اكن أعلم أن ذلك يؤلم عمتي، لوجدت نفسك خارج تلك الوظيفة. ولكن يبدو أن تأثيرك كبير على عمتي لسبب لا أفهمه. وطالما أنها الآن

مريضة، فانني لا أحب ان اضايقها، ولكنها لن تبقى كذلك إلى الأبد.» فقاطعته تشارلي بحدة: «هذا شيء لا دخل لك فيه. إذ ليس لك عليّ أية سلطة، ولا شيء بيننا لكي...»

فقاطعها: «ما عدا صاحبة المنزل الذي اسكنه الآن.»

وتلاشت بقية الكلمات على شفتيها، وهذه الكلمات المسمومة التي تبطن التهديد، تدور وتدور في رأسها. لو أنها، فقط، تجد طريقة للتخلص من هذا الاتفاق، ولكنها سبق ووعدت أمها ولا يمكنها الاخلال بهذا الوعد الآن.

ورددت كلماته وحاولت أن تحمل كلماتها قدر ما تستطيع من التكلف والتهكم: «ما عدا انني صاحبة المنزل الذي تستأجره. ولكن هذا كل ما ساكونه.»

تشابكت عيناها العسليتان بعينيه الرماديتين وفجأة، تذكرت بوضوح تام عندما احتضنها بين ذراعيه مرتين في منزلها هذا وشعرت بخدر في جلدها، وفجأة، شعرت بصعوبة بالغة في التنفس.

قال وقد أطلت من عينيه براءة ساخرة من سخطها هذا: «طبعاً، ستكونين صاحبة المنزل، وساكون أنا المستاجر عندك.»

ما أن شعرت تشارلي بالدهشة، في نفسها لسهولة استسلامه هذا، حتى أضاف يتمتم بصوت ينضح بالاغراء: «ولكنني اتساءل عما إذا كنت تجدين أن من السهل عليك تحمل ذلك الوضع كما تظنين؟ وأظن ان الأسابيع التالية ستكون مثيرة جداً في الحقيقة.»

الفصل السابع

كانت تشارلي مستغرقة في قراءة كتاب فن الطبخ عندما سمعت صوت الباب الخارجي يفتح معلناً عودة بول من زيارته اليومية لعمته في المستشفى. وضعت الكتاب جانباً وتناولت الجريدة متظاهرة بقراءة الأخبار الرياضية.

حياها هو ببساطة، وهو ينظر، ساخراً، إلى طريقة جلوسها حيث كانت مسترخية في مقعدها رافعة قدميها على الطاولة أمامها، وسألها: «هل كان يومك حافلاً بالعمل؟»

لم تهتم هي بسخريته هذه، وبقيت على عبوسها بالجريدة دون أن تكلف نفسها عناء الاجابة، وزاد من ضيقها أن بول لم يخدع بوضعها الكتاب جانباً، فتناوله وأخذ يتصفحه ليجد قطعة ورق علامة على صفحة معينة وهو يقول: «أرجو أن لا تكوني قد قررت طهو شيء خاص لهذه الليلة. آه... فطائر الجبن؟ يا للأسف هل ابتدأت بصنعها؟»

أجابت باقتضاب بصوت أجش: «كلا.» ذلك أنها لم تكن تريده أن يعلم أنها كانت تريد تحضير فطائر الجبن هذه التي اعتادت أمها صنعها للمستاجرين بشكل لذيذ جداً. ولكنها عندما قرأت طريقة صنعها وجدتها أصعب مما تصورت وكادت ان تغير رأيها عندما دخل هو.

كانت في الحقيقة، شديدة الارتباك بعد أن أدركت صعوبة التصرف كمؤجرة لبول ساريزن. خاصة وأن

مهارتها في الطهو، كما كانت تعترف دوماً بأنها لا تقارن بمهارة أمها، كانت تقرب من الصفر. وعليها أن تجاهد في سبيل تحضير أنواع لذيذة من الطعام كما اعتاد بول من أمها.

قال بول: «هذا حسن، فلا تكلفي نفسك إذاً، فإنني لن اتعشى هنا الليلة.»

شعرت تشارلي بالراحة لاعفائها من هذه المعاناة لهذه الليلة، مما دعاها لالقاء الصحيفة جانباً لتسأله: «لماذا؟ هل ستسهر خارجاً هذه الليلة؟»

أومأ برأسه وقد بدا الرضى جلياً في عينيه وهو يقول: «في مطعم شالمورث هاوس.»

فكرت تشارلي في أنه سيتناول هناك وجبة هي افضل من اي طعام تصنعه. ومنذ تحول ذلك القصر الاقطاعي إلى مطعم، اكتسب شهرة ذائعة لطعامه اللذيذ الذي يقدم في جوّ رائع الجمال والراحة، وفي الواقع، لم تكن هي قد ذهبت قط إليه، لأن احوال اسرتها المادية لم تكن لتسمح لها بشراء «البيتزا» من أي مكان في الشارع، فكيف بالذهاب إلى مكان مكلف مثل هذا المطعم؟ ولكن بعض صديقاتها ذهبن إليه ولم يستطعن وصف جماله.

وقالت له: «هذا حسن جداً. هل ستذهب إليه بمفردك؟»

لدى تلفظها بهذا السؤال، شتمت نفسها لغبائها. كيف تتوقع منه أن يذهب لمثل هذا المكان بمفرده؟ إن رجلاً مثل بول ساريزن لا يتعشى في مطعم وحده. وعمته الآنسة اميلي كانت دوماً تتحدث عن الفتيات الجميلات اللاتي كان اسمه على الدوام، يقترن بأسمائهن. وكانت تشارلي، في الواقع،

تملؤها الدهشة لطول المدة التي أمضاها بول دون مصاحبة فتيات، وكانت تتوقع أن يمضي اجازته هذه مع الفتيات. لقد دهشت حقاً لمكوثه في المنزل كل ليلة والذهاب إلى سريره باكراً كما اعتاد في أول اسبوع من إقامته عندهم.

وأجابها هو مؤكداً ظنونها: «كلا، فإنني على موعد مع آنيت ليندون... انك تعرفينها.»

كانت تشارلي تعرفها جيداً. وهي من الطراز الذي يعجبه. وتجاهلت وهي تفكر في هذه الفتاة، الوخزة التي شعرت بها. كانت آنيت ليندون فتاة شقراء ممشوقة القوام تعمل ممرضة في قسم العناية الفائقة حيث كانت الآنسة ماكنزي تتماثل إلى الشفاء بشكل ممتاز.

وتمتمت مرة أخرى: «هذا حسن جداً.» ولم تشأ أن تقارن جمال آنيت الأشقر الذي لم تستطع ملابس التمريض أن تخفيه، بمظهرها هي الخشن في سروال الجينز والقميص المقفول، ووجهها الخالي من أية زينة وشعرها المسترخي على كتفيها دون نظام.

قالت له: «انني متأكدة من انك ستمضي أمسية رائعة.»

ندمت وهي تتلفظ بهذه الكلمات، للطريقة التهكمية المرة التي نطقتها بها. وتمنت لو تستعيدها. ولاحظ بول لهجتها هذه فسألها بابتسامة ساخرة: «ماذا جرى لك يا شارلوت. لا أظنك تشعرين بالغيرة. أليس كذلك؟»

أجابته: «الغيرة؟ لا تكن سخيفاً.»

وتمنت لو أنها لم تنطق بهذه الكلمات بمثل هذا الصوت المرتفع والمؤكد بشكل زائد عن اللزوم، ولكنها لم تستطع

أجاب: «لأنني ادركت انك كنت تريدين قبلتي عندما رقصت معك تلك الليلة... وقبل ذلك، على الشاطىء.»

فنظرت إلى ذراعيها المعقودتين فوق صدرها ليشكلا الحاجز الوحيد بينهما. وقالت بصوت ضعيف: «نعم.»

فقال: «اخبريني لماذا أنت خائفة.»

رفعت رأسها لتنظر إلى عينيه شبه المغمضتين، وقالت: «هل تراني غامضة مبهمة؟ ألهذا السبب أتيت؟ حبك للغموض والحقائق المختفية؟» وارتفع صوتها بينما كان جسدها يرتجف وهي تستطرد قائلة: «هل تريد أن تنقب في نفسي عن الحقائق كما تفعل في حفرياتك حول ماريدا؟»

هزها بعنف ممسكاً بذراعها قائلاً: «كفى.» وما لبث أن أطلق ذراعها وهو ينظر إلى ما وراءها، ثم عاد يقول: «ها إن أخاك قادم. هل هذا يشعرك بالأمان الآن؟»

واهتز جسدها... إن هذا ما ينبغي أن يكون، ولكن، ما لها لا تشعر بذلك؟

عاد يسألها: «هل ستهربين مني، بواسطته، مرة اخرى؟»

فهمست: «نعم.»

أتاها صوت ميكيل من خلفها يقول بخشونة: «ماريا؟»

تنفست بعمق وقد تعلقت نظراتها بنظرات ريكاردو. لو أنها هربت...

وقال ميكيل وقد بدا التحدي في نبرات صوته: «سيد سوان؟»

ورأت ماريا رأس ريكاردو يرتفع عالياً، وكأنما تقبل التحدي، وهو يقول: «سيد كونسرتا، إنني مسرور لمقابلتك ثانية.»

بدا جوابه هذا، ظاهراً، موافقة بريئة على كلامها، ولكن التأكيد التهكمي الغامض وهو يشد على مقطعي هذه الكلمة، وقد ابرز الغضب السخرية في عينيه واضحة، طغى على أدبه المصطنع، من قولها هذا مما جعل الدم يغلي في عروقها. كانت المشكلة في أنها تعلم جيداً بماذا يفكر، دون أن تستطيع انكار ذلك، وهو ان كل الليالي التي أمضاها هو عندهم لم تمض هي سوى ليال هادئة في المنزل، وقالت: «ان عندي الكثير من العمل.»

كانت تحاول مستميتة، ان تجد ما تؤكد به ما قالت. شيء مثير يدحض الفكرة التي بدت في عينيه عنها، بجلاء، وهي صورة فتاة قعيدة البيت لا يهتم بها رجل!

قالت: «عندي غسيل الآنسة ماكنزي عليّ ان انهيه.»

لم تكن موفقة في حجتها هذه إذ تقارنها بمثل ذلك العشاء في ذلك المطعم الراقي... وجعلها هذا تبدو مثل «ساندريلا» التي تركها اخواتها لأبيها، كما تذكر الحكاية، وحدها لتقوم بأعمال المنزل، ليذهبن إلى الحفلة الراقصة في قصر الأمير الفتان.

وقال هو بازدراء: «انه قميص واحد.» وذكرتها لهجته هذه تصميمها على ان تثبت له بطلان اعتقاده بأنها تستغل عمته في ابتزاز نقودها مقابل لا شيء تقريباً، تثبت له هذا البطلان باجتهادها في مضاعفة عملها في المنزل النهري إلى درجة بالغة وصلت إلى حد الغباء بالنظر إلى خلو المكان من السكان، من حيث التنظيف والتلميع وغسل كل ما ترسله مخدومتها من المستشفى حالما يصل إلى يدها.

وتابعت تقول: «وهنالك فيلم أريد أن أحضره على شاشة

التلفزيون.» وكان هذا الفيلم من النوع الذي كانت تجاهر دوماً باحتقاره. ولكنها كانت على استعداد لتعلن حبها لأفلام الأشباح ومصاصي الدماء إذا كان في هذا ما يجعل بول يتراجع عن عقيدته في انها موضوعة على الرف، لا يهتم بها رجل.

عندما خطر لها أن تتساءل عن السبب في اهتمامها الشديد في تغيير عقيدة بول تلك عنها، وجعله يعتقد انها ليست تلك الفتاة الوحيدة، دون عمل تقوم به، انقبض قلبها بنفس الطريقة التي شعرت بها عندما رماها بنعت الغيرة التي لم تمر في ذهنها قط قبل الآن.

كلا.. كل ما في الأمر انها كانت حمقاء، لأن كل ما في الأمر أن كرامتها جرحت، وهذا هو كل شيء.

قالت بحدة: «لسنا جميعاً في حاجة إلى شخص من الجنس الآخر للمرافقة لكي نثبت جدارتنا الشخصية.» قالت ذلك وقد نسيت أن بول امضى ثلاثة أسابيع قانعاً بالبقاء في المنزل كل ليلة غير مهتم بالنساء، ليقرأ كتباً أو يتفرج على عروض التلفزيون، وفي الواقع، أنه كان يمضي أكثر أوقاته مع عمته في المستشفى، وما بقي من وقته كان يمضيه في المنزل النهري يجري الاصلاحات التي يجدها ضرورية مما جعل حضوره في منزلها خفيف الوطأة على نفسها عكس ما توقعت ان يكون.

وسألها بهدوء: «وهل قلت أنا شيئاً مخالفاً لقولك هذا؟ اظن أن آنيت ستشعر بالإستياء إذا سمعتك تسبغين على الموعد معها، هذا السبب، وصدقيني انني لست في حاجة إلى مثل هذه الطريقة لكي اثبت شخصيتي.»

وفكرت تشارلي، أن ما يقوله صحيح، وأن شعورها هذا لا ضرورة له. وأن بول ليس في حاجة إلى ان يبحث عما يثبت شخصيته ويدعمها، ذلك أن شخصيته قوية ثابتة الدعائم كما كانت.. ولكن الظاهر أنها، منذ وصوله إلى هذه البلدة، بارفورد، فقدت توازنها النفسي.

وتمتمت: «حسناً، ليس لك أن تقلق بشأني على كل حال.» كانت تعرف تماماً أنه لم يكن ليهتم بها مثقال ذرة. وتابعت: «يمكنني ان اكون سعيدة تماماً بمفردي.» ولسوء الحظ، لم تكن لهجتها من التأكيد واللامبالاة كما تمنت هي أن تكون. وتابعت تقول: «هل ستتوجه رأساً من المستشفى إلى هناك؟»

أجاب: «كلا. سأعود لكي اغير ثيابي. وسأقابل آنيت في المقهى العام الساعة الثامنة والنصف.»

فقالت: «ولكن ليس في مقدورك أن تذهب إلى هناك دون أن تكون أكلت شيئاً منذ وقت الغداء.» كانت تعلم ان منطقها الرقيق هذا يبدو سخيفاً، ولكن هذا يمنحها سبباً للتدخل لمعرفة ما صمم عليه وإلا، فسيكون لسؤالها معنى التطفل أو ما هو اسوأ، أي الغيرة.

وقالت: «سأجهز لك شيئاً خفيفاً تأكله حوالي الساعة الخامسة قبل ذهابك إلى زيارة عمتك في المستشفى.»

قال: «هذا سيكون لطفاً منك هل انت متأكدة من أنه لن يسبب لك أي ازعاج؟»

كان يتحدث بأدب مفرط. وأحست هي بالغضب في داخلها. يجب أن يعلم أنها لا تصدق إخلاصه في جوابه المؤدب هذا. وقالت له بحدة: «ليس ثمة ازعاج. ثم ان الاتفاق بيننا هو تقديم الطعام والمنامة لك يومياً. وبما أنك

لن تتعشى هنا الليلة، فإن لك الحق في وجبة خفيفة بدلاً من ذلك.»

وعاد بهما ذلك إلى العلاقة الرسمية العملية التي بينهما. بهذا حدثت نفسها، راضية، وهو يترك الغرفة قاصداً غرفته. ذلك ان دور المؤجرة والمستأجر كان أفضل لها من تقرب الاطراء المبطن بالسخرية الذي اعتاده مؤخراً، ولا بد لها من تجنب ذلك في المستقبل.

وفي الساعة الثامنة والربع من ذلك المساء، كانت تشارلي قد غسلت وكوت قميص النوم والمنشفتين التي احضرها بول معه من المستشفى، ثم جلست إلى الطاولة تكتب رسالة إلى والديها اللذين سبق ووصلها منهما بطاقة تفيض بالغبطة، ذلك الصباح فقط، مما جعلها تستسيغ أية تضحية قد تكون قامت بها نحوهما، وكانت تعلم أن أمها، على الأخص، ستدهش إذ تستلم أي شيء منها، ولكنها كانت مصممة على ان يجدها بول، حين رجوعه من زيارته لعمته، مشغولة تماماً.

عند الساعة الثامنة والثلث، نزل بول من غرفته بعد أن غير ثيابه ليجدها تتحدث في الهاتف بمرح، في القاعة، وبالكاد أشارت بيدها بالتحية رداً على تحيته وهو يسرع خارجاً إلى موعده مع آنيت المتألقة. وعندما سمعت صوت سيارته تتحرك مبتعدة، توقفت عن ثرثرتها الزاخرة بالحيوية والمرح وهي تلوي ملامحها غيظاً، ورفعت سماعة الهاتف التي كانت هي المستمعة الوحيدة لثرثرتها عما فعلته في الأيام الماضية، ثم صفقتها بقوة في مكانها وهي تهز رأسها يائسة. ما الذي جعلها تهبط

إلى هذا المستوى، لتقوم بهذه التمثيلية البائسة لا لشيء إلا لأجل رجل لم تمنحه أي اهتمام من قبل، فلماذا تهتم به الآن؟

وعند الساعة الثامنة والنصف، وكانت قد تنقلت بين كل المحطات التلفزيونية حيث لم تثر أي منها اهتمامها أكثر من نصف دقيقة، وجدت نفسها تجوب انحاء غرفة الجلوس بضيق، وهي تحاول ان لا تفكر في ذلك اللقاء الجاري الآن في ذلك المقهى وسط البلدة. هل تراهما سيذهبان رأساً إلى مطعم شالمورث هاوس أم انهما سيتناولان شراباً في المقهى أولاً؟ ان هذا أكثر احتمالاً. ذلك أن ذلك المقهى يحتوي على مكان للجلسات الشاعرية.

وهتفت تؤنب نفسها بصوت مرتفع، هذا يكفي، وذلك بعد ان شعرت بطعنة مؤلمة في قلبها تشبه الغيرة. ما الذي جعلها تتدخل في شؤون بول؟ ان ما يفعله ليس من شأنها اطلاقاً.

كان عليها أن تشغل نفسها بشيء يلهيها عن التفكير في مواضيع ممنوعة مثل تصور بول وآنيت معاً والاثنان ممشوقا القامة طويلان. ولا بد انها، أي آنيت، مرتدية ثوباً رائعاً.

حين وصلت بتفكيرها إلى هذا الحد، خطرت في بالها فكرة. لا يمكن أن تجلس هكذا لتفكر في هذا، وهي لم تفتح خزانة ثيابها، لتتفحص محتوياتها، منذ مدة طويلة وهذه فرصة ممتازة الآن لعمل مثل هذا. وهكذا، رغبة منها في تركيز افكارها في عمل ما، ركضت صاعدة الدرج إلى غرفة نومها حيث فتحت خزانة ثيابها على مصراعيها.

وتغير مزاجها في الحال وهي ترى كيف تغيرت حياتها

في التسعة اشهر الأخيرة، ذلك أن في إمكانها أن تقسم خزانتها إلى قسمين، جهة منها تحتوي على سراويل الجينز والقمصان والتنانير القطنية وهي التي تناسب حياة الريف والعمل في المنزل النهري، بينما الجهة الأخرى تحتوي على ثيابها الأنيقة الخاصة بالمدينة من بزات انيقة مع القمصان الحريرية التي تناسبها وهي التي كانت تؤلف ملابسها اليومية عندما كانت تعمل سكرتيرة في مدينة ليدز، وكذلك ثياب السهرة التي كانت ترتديها عند خروجها مع تيري.

وببطء مدت تشارلي يدها تتناول ثياب السهرة تلك ربما لأول مرة منذ علقتها هنا. وهي في إمكانها ان تتذكر كل مناسبة ارتدتها فيها، ولكنها لم تعد تشعر بأي ألم لهذه الذكرى. ولم تشعر بأي شوق لتلك الحياة، وبالتالي لم تعد تشعر بذلك نحو تيري... ولكن...

ولمست اصابعها ثوباً منها بشكل خاص من الحرير الزاهي اللون، لقد كان ثوباً غالياً حقاً، ولكنه لم يلبس مطلقاً. لقد كانت ابتاعته لترتديه في حفلة لم تحضرها قط. وفي الحقيقة، كان لا يزال في العلبة التي احضرته فيها من السوق بيدها في نفس اليوم الذي وجدت فيه تيري ولويزا معاً.

انتابت تشارلي نزوة طارئة جعلتها تسحب ذلك الثوب من مكانه، ثم تمسك به أمام جسدها. وما لبث أن خطرت لها فكرة، فوضعت الثوب جانباً، ثم تناولت الحقيبة التي تحتوي زينة وجهها.

كانت الساعة تدق، في القاعة، التاسعة تماماً، عندما أخذت تشارلي تنظر إلى صورتها في المرآة بشيء من

الرضى. لقد مضى وقت طويل على آخر مرة تبرجت فيها. لقد جعل الكحل والظلال التي وضعتها حول عينيها بطريقة بارعة، عينيها تبدوان بالغتي الاتساع، وقد لوت اهدابها بعدة طبقات من «المساكارا». كما وضعت لوناً خفيفاً على وجهها ابرز وجنتيها لتصبحا بالشكل الذي كانت تحسد دوماً عارضات الأزياء عليه في صورهن الفوتوغرافية. كذلك اجرت تجارب على شعرها، فعقدت تجاعيده عالياً فوق رأسها في طراز متكلف، تاركة خصلات منه تتدلى حول وجهها. وأبرز طراز شعرها هذا جمال عنقها وبشرته الرقيقة.

وفي الحقيقة، وجدت أن هذا الثوب الأحمر قد لاءمها الآن أكثر مما كان عندما اشترته، ذلك ان تسعة اشهر من الغذاء اللذيذ الذي تصنعه أمها، قد أكسبها اكتنازاً بعد ذلك النحول المفزع الذي كانت عليه في مدينة ليدز، مضيفة استدارات ساحرة لجسدها الغض ابرزها ذلك الثوب الحريري الرقيق بشكل جذاب أذهل تشارلي رؤيته في المرآة. لم تعد تبدو الآن بذلك المظهر الصبياني الذي كانت عليه سابقاً، وإنما كانت الآن امرأة ناضجة كاملة الأنوثة.

وتمتمت بحسرة: «كل هذه الزينة والتأنق وليس ثمة مكان أذهب إليه.» وتذكرت، لأول مرة، ما دفعها إلى هذا العمل. لا بد ان بول وآنيت الآن جالسان في ذلك المطعم. انهما...

توقف مجرى افكارها، وتوترت اعصابها وهي تسمع حركة خفيفة في الحديقة. وتجمدت في مكانها، وقد ارهفت سمعها. كان ثمة صوت مؤكد للباب الأمامي وهو يفتح، وكانت قد غفلت عن اقفاله، لتسمع بعد ذلك وقع خطوات

هادئة في القاعة. أهو لص؟ ودون أن تفكر، أمسكت بأقرب شيء صلب وجدته ثم اندفعت تهبط السلم.

«شارلوت» وصل الصوت الذي يهتف باسمها إلى سمعها حالما وصلت إلى القاعة الغارقة في الظلام، لتقف فجأة وهي ترى الشبح القاتم يدير مفتاح النور لتطرف بعينيها هي في الضوء الساطع وقد سادها الارتباك لمرأى بول واقفاً في الباب. وسألته وقد توقفت انفاسها وغمر ذهنها المشوش الخوف: «ما الذي تفعله هنا؟ ظننتك تتعشى الآن مع تلك الجميلة آنيت؟»

فابتسم بول بحسرة وهو يقول: «وكذلك كنت أظن نفسي.» وكان في لهجته شيء من السخرية بالنفس وهو يتابع: «لم اكن أظن أن الأمور ستنتهي بهذا الشكل.»

فسألته: «وماذا حدث؟»

سرّت تشارلي في نفسها إذ أن اندفاعها في هبوط السلم بهذا الشكل، جعل لها عذراً في صعوبة تنفسها وهي تراه في النور لأول مرة متفحصة منظره الذي لم تكلف نفسها، متعمدة، عناء النظر إليه وهي تتصنع الانشغال عنه، عند خروجه، بتلك المكالمة الهاتفية الزائفة.

لقد اعتادت رؤيته في سروال الجينز المريح والقميص المقفول، اغلب الأوقات، لا يغير سوى قميصه بآخر افضل بقليل عند ذهابه لزيارة عمته في المستشفى وهكذا وقفت مصعوقة أمام هذا الرجل الأنيق الرشيق الذي يكاد يبدو غريباً، والواقف امامها متألقاً في بذلة رمادية أنيقة وقميص بلون الثلج تدلت فوقه ربطة عنق متناسبة الألوان.

إذن، فقد كانت آنيت ستستمتع بمرافقة بول ساريزن اللندني

الأنيق. وشعرت بوخزة ضيق مفاجيء في اعماقها لهذه الفكرة، بينما حاولت ان تركز على ما يقول، بدلاً من التأمل في ما أبرزته بذلته الرائعة التفصيل من عرض كتفيه ونحافة جسمه. وتناسب لون بذلته مع لون عينيه. وشعرت بحلقها يجف فجأة. وأخذت تزدرد ريقها بصعوبة.

قال: «انها لم تأت. وعندما اتصلت بها، بعد ان انتظرتها ثلث ساعة، قالت انها مرهقة جداً وتريد أن تذهب إلى فراشها باكراً.»

ولم يلحظ ضحكة اختنقت في حلق تشارلي، وقالت بلهجة مرحة منغمة: «لقد عدت إذن خاوي الوفاض.»

أجاب باسماً: «هكذا يبدو.»

لم تستطع ان تقاوم فضولها فسألته: «أهو الموعد الأول معها؟»

وأومأ هو برأسه بالايجاب وقد اتسعت ابتسامته، بطريقة دخلت قلبها.

وقال هو بلهجة تمثيلية ساخرة: «كل هذا التأنق، ولا مكان اذهب إليه.»

ما أن كبتت تشارلي صيحة كادت تفلت منها وهي تسمع منه نفس الكلمات التي حدثت بها نفسها منذ دقائق، حتى تبدلت ملامحه، وتلاشت ابتسامته وتكدرت عيناه بشكل ملحوظ وهو يقول متمتماً بصوت اجش منخفض أرسل الرعشة في جسد تشارلي: «نفس الشيء بالنسبة لك. انني لم أرك على هذا الشكل من قبل. ان ثوبك هذا صاعق بجماله. من هو الرجل المحظوظ الذي سيحظى بكل هذا؟»

أجابت دون تفكير: «أوه... لا أحد.» لتشتم نفسها حالما

انتهت من كلامها لعدم تفكيرها في اختراع شخصية مرافق لها. ونظر هو إليها فشعرت وكأنها منومة مغناطيسياً. وشعرت بجفاف في حلقها وبللت شفتيها بلسانها. ورأت عينيه تراقبان كل حركة منها.

ولكن، سرعان ما تلاشت افكارها هذه وهو يقول هازاً رأسه ببطء: «هذا يدعو للأسف الشديد. يجب أن يرى احد اناقتك وجمالك هذين.»

قالت: «أحقا؟ لقد كنت، في الحقيقة، أجرب... بعض الملابس القديمة و...» وتوقف لسانها في حلقها الجاف وهي ترى الطريقة التي أخذ ينظر بها إليها، والنظرة المفاجئة التي تألقت في عينيه وهو يجيب: «لا أظن ذلك. بعض الملابس القديمة؟ هذه الصفة لا تنطبق على ثوبك هذا. إن عندي فكرة.»

نظر في ساعته، وبان على ملامحه الرضى وهو يقول: «مازالت مائدتي محجوزة. وإذا نحن اسرعنا، سيمكننا الوصول إلى مطعم شالمورث هاوس في حدود التاسعة والنصف. فهل تشرفينني بتناول العشاء معي هذه الليلة؟»

تملكتها المشاعر المتضاربة، وثارت كرامتها وهي تشعر بأنها ستكون مجرد بديلة للمدعوة الأصيلة، لم يدعها إلا لأن آنيت خذلته. ولكن، لا يبدو عليه الاهتمام حقاً بها. وسارع شعورها بأن آنيت لم تكن لتهمه كثيراً، في خفقان قلبها.

تلاشت كل هذه الأفكار وهذا التردد، لتبقى هناك فكرة واحدة. تذكرت كل الضيق ووخزات الألم التي شعرت بها قبل فترة، خاصة وهي ترى ثوبها الأحمر الذي لم تلبسه قط من قبل، وإدراكها أنها لم تخرج ليلة واحدة منذ جاءت إلى

بلدتها هذه بارفورد. كل هذا أدركت معه أنها لا تريد ان تقول نعم، هذا مع ان عقلها كان يقول لها أنها لا تود بول ولا تحب الخروج معه أو مرافقته أكثر من اللازم، ولكنها عادت تفكر في الاستمتاع بوجبة طيبة، والغزل البريء مع رجل وسيم، وهي لا تنكر أن بول هو وسيم حقاً بشكله الأخاذ ورجولته البادية. ونظرت في عينيه الرماديتين الصافيتين لتدهش وهي ترى اهتماماً بها لم تكن تتوقعه ولم يكن بول، في الواقع، متأكداً من قبولها دعوته وفي الوقت الذي كانت هي تشعر فيه بالتردد، غير واثقة مما استقر عليه رأيها، رفع هو يده يلغي بها دعوته لها قائلاً: «حسناً، انسي انني...» في هذه اللحظة ادركت انها تريد حقاً أن تخرج معه فقاطعته تقول: «اظنها فكرة جميلة. نعم، شكراً، أحب جداً أن اتعشى معك. أحب ذلك كثيراً.»

الفصل الثامن

وضعت تشارلي الملعقة من يدها، واسترخت في جلستها وهي تقول راضية: «كانت وجبة رائعة حقاً، استمتعت بها تماماً.»

ابتسم لها بول قائلاً: «انني مسرور بذلك. وفي الواقع انني مسرور لقبولك الخروج معي هذه الليلة.»

قالت هي بعفوية: «وكذلك أنا.» لقد تبخّر كل توترها السابق في غمرة ابتهاجها بهذه الأمسية، والطعام اللذيذ والتصميم الجميل في المطعم، وقبل كل شيء، لدهشتها البالغة، كانت صحبة بول هي الأجمل.

لقد كان مرافقاً ممتازاً. كان مهذباً ساحراً حريصاً على ارضائها وعلى إدارة دفة الحديث بينهما بشكل ذكي راقٍ. وسلب لبها بحديثه عن غواتيمالا لتراها بلداً مدهشاً مليئاً بالمتناقضات حيث يجتمع جمال الطبيعة الرائع مع الفقر المدقع والظلم الاجتماعي.

قال: «هنالك شعور بالماضي لا يصدقه العقل. وهذا لا يكاد يثير الدهشة إذا أنت علمت أن أول حضارة نشأت في أميركا هي حضارة «المايان». لقد عاش الهنود هناك، ومازال الكثير من ذريتهم يعيشون في قرى متباعدة في شمال البلاد، ومازالت الأزياء الهندية شائعة بينهم بعكس البلاد التي يسكنها الأميركيون من ذوي الأصل اللاتيني.»

وشجعتها لهجته على أن تقول: «يبدو أنك احببت الشعب

هناك.» فأومأ برأسه قائلاً: «نعم انه شعب رائع، وشديد الفخر بتراثه، هل تتصورين ان اخلاق وأزياء اهالي تلك القرى المتباعدة بقيت مختلفة حتى ان في إمكانك ان تعرفي الشخص من أية قرية وذلك من زي ولون قميصه او قميصها؟ ولكن المؤسف أنه، كما يحدث في بلدان كثيرة، المواطنون الهنود يقعون تحت الاستغلال إذ يتخذون منهم أيدٍ عاملة رخيصة في زراعة الموز والبن وقصب السكر فيبعدونهم عن قراهم لأجل ذلك. وأولئك الذين يهاجرون إلى مدينة غواتيمالا منهم، ينتهي بهم الأمر إلى التشرد في الشوارع لشدة الفقر. ربما سبق وقرأت عن ذلك؟»

أومأت برأسها قائلة: «نعم، لقد قرأت.» لقد خلبت لبها هذه الناحية من شخصية بول، إذ رأت فيه رجلاً ذا عناية والتزام يبدو الاهتمام في لهجة صوته والمشاعر الزاخرة بها عيناه الرماديتان.

وتابعت قولها: «يبدو انك وقعت في غرام تلك البلاد. لا بد أنك متشوق إلى العودة اليها.»

فسألها بول متعمداً أن يسبغ على صوته السخرية: «هل تحاولين التخلص مني، يا شارلوت؟» وبينما كانت هي تعض على شفتها وهي تلعن اللون الذي تصاعد إلى وجنتيها ففضحها، تابع هو معمقاً من لهجته الساخرة تلك: «ولكن، لا تفترضي ذلك، فإنني لم أقل قط أنني سأعود إلى تلك البلاد.»

قالت: «كلا؟ لكنني أظنك ستجد جو القرية هنا مملاً جداً.»

قال: «انك مازلت على كلامك، بالعكس، فهذا يناسبني تماماً، وأنت التي يبدو شوقك إلى حياة المدينة اكثر مني.»

هزت رأسها قائلة: «من هو الذي يفترض الآن؟»

قال: «عندي شواهد على اعتقادي هذا. انه ليس افتراضاً.»

سألته: «وما نوع هذه الشواهد؟»

أجاب: «ان أي شخص يراقبك الآن، لا يغفل عن نوع شعورك. انك كالصبي الذي وضعوه في متجر العاب قبل عيد الميلاد مباشرة.»

قالت: «أوه.» وحاولت ان ترفع يدها إلى وجهها تخفي اللون العميق الذي صبغ وجنتيها، ولكنها غريزياً، أبقت على الاشارة التي تلفت النظر إلى ردة الفعل عندها. هل هي حقاً شفافة إلى هذا الحد بحيث يمكن فهمها بسهولة؟ أم أن بول يراقبها بعناية عن قرب فلم يفته ما تشعر به؟ وبرعشة عدم ارتياح في اعماقها، اعترفت بأنها لا تعرف ما الذي كان يضايقها اكثر من أفكارها، وهي تقول: «منذ خرجت لآخر مرة، في الليل.»

قال وهو ينظر إليها متفحصاً: «أحقاً؟ هل تريدين ان تخبريني أن ليس ثمة رجل في بارفورد عنده دم ليرى امرأة رائعة الجمال مثلك؟»

وبينما كانت تشارلي تفكر كيف تتصرف إزاء لهجة السخرية التي لفظ بها تلك الصفة «عنده دم» خاصة وهو يقرنها بوصفه لها «رائعة الجمال»، عاد يضيف في مثل لهجة الاغاظة تلك لها: «آه، ولكنني نسيت انك قد كرست كل وقتك لخدمة عمتي.»

قالت: «ليس كل وقتي... ثم.»

وسكتت بسرعة لا تريد ان تثبت ما سبق وأشار إليه من

أنها «على الرف»، وكانت على وشك أن تقول كان هناك برايان... ولكنها خشيت أن يتذكر قصة خطبتها المزيفة تلك مما سيفسد هذه السهرة الآن وإلى النهاية، هذا إلى أنها لم تعد متأكدة من حركات برايان، وقد غرس بول بذور الشك في نفسها ومنذ ذلك الحين وهي تشعر ببعض القلق.

سألها بلطف: «ثم؟»

قالت: «ثم انك نسيت ما اخبرتك به عن تيري.» والحقيقة أنها كانت قد اقسمت ألا تثق برجل بعد تيري بمثل تلك السرعة، ولكن يبدو وكأنها عادت وتصرفت بمثل ذلك مع برايان.

قال بول: «تيري؟ آه، نعم... إنه الرجل الذي حطم قلبك.»

وتغيرت ملامحه فجأة وهو يقول: «أما زلت تفتقدينه؟»

فرددت كلمته: «افتقده؟» وفكرت في أن هذه المناسبة البهيجة قد استحالت إلى العكس إذ كان عليها أن تستجيب إلى كل تقلبات مزاج بول التي تلوح على وجهه. كيف تجيب عن هذا السؤال؟ وفجاة، أدركت أنه لن ينفعها سوى قول الحقيقة كاملة.

قالت: «كلا. انني لا افتقده... وإذا شئت الحقيقة، لا أظنه قد حطم قلبي، ربما هو قد خيّب ظني، وخانني، وحطم ثقتي ولكن ليس قلبي. ولا أظنني احببته حقيقة قط. كل ما في الأمر انني كنت اسر بالخروج معه. لقد اعتدنا الخروج كثيراً، وكان يسرني أن ارتدي ثياباً جميلة وأذهب إلى أمكنة بهيجة.»

وضعف صوتها وهي تنظر في الوجه المقابل لها، كيف استطاع ان يستدرجها في الحديث إلى هذا الحد لتدلي إليه بما لم تعترف به لنفسها من قبل، وذلك بعدة اسئلة قليلة؟

كيف استطاع أن يجعل مشاعرها ترتسم على وجهها ليراها كما هي؟ ثم ما الذي وضع ابتسامة الانتصار تلك في عينيه وهو يسترخي في كرسيه؟ ما الذي كان يفكر فيه؟

وراجعت، بقلق، كل ما تفوهت به، لترى ان كان ثمة شرك في أسئلة بول، شرك قد تكون سقطت فيه دون تفكير.

لكنها رأت أن ذلك كان بعد فوات الأوان إذ انها أدركت، بعد ان تذكرت كلماتها، انه فسر تلك الكلمات، وكيف شرح شعورها ببراءة، نحو تيري وربطه بالحياة الاجتماعية، كيف يحول هذا المستمع الساخر، هذا إلى اعتبارها فتاة عابثة تبقى فقط مع الرجل لما يمكنه ان يقدم لها من متع ورفاه، كما يظنها بالنسبة إلى عمته، وساورها شعور مفزع أنها قد وقعت بالتجربة، وحوكمت ثم صدر عليها الحكم بالادانة بأنها فتاة متحجرة القلب تسعى وراء المال مما يؤكد رأيه فيها بأنها تريد ان تسلب من أموال عمته قدر استطاعتها، وأنها إنما تبقى معها فقط لكي تملأ جيوبها، لتعود بعد ذلك، إلى حياة المدينة وأضوائها. وتأكدت شكوكها هذه حين قال لها: «إذاً، فانت تفتقدين المدينة الكبيرة.»

أجابت بحدة: «انك تريدني أن اقول نعم، أليس كذلك؟» ونضح صوتها بالمرارة لشكوكه الظالمة هذه مما نسيت معه ما سبق وصممت عليه من توخي التهذيب معه. كيف كان لها أن تظن الجانبية في مثل هاتين العينين الباردتين والملامح القاسية؟ كانت تتذكر، بهذا، شعورها عندما دعاها إلى العشاء. ولكن، نظرة منها، بعد لحظة، إلى هذه الملامح القوية، علمت معها أنه، مع سخريته وانعدام

مشاعره، مازال تأثيره عليها أقوى من تأثير أي رجل قابلته من قبل، وشكل ميلها الغريزي له مع شعورها بظلمه لها، مزيجاً من المشاعر المتفجرة اخذت تجاهد في سبيل كبحها.

قال لها: «أريد منك أن تخبريني الحقيقة.»

أجابت: «وهل تصدقني لو فعلت ذلك؟ انك حتى الآن، لم تصدق شيئاً مما قلته لك.»

لم تصدق ما رأته عيناها عندما رأت بول، وقد تغيرت تعابير وجهه فجأة ليحل مكانها ما يشبه الخجل للبراءة والقوة اللتين تجليا في جوابها هذا.

وقال: «آه، نعم، ربما كنت تسرعت قليلاً في الحكم عليك.»

قالت غير مصدقة: «ما هذا؟ انه ليس اعتذاراً بالطبع؟»

ارتسمت على جانب فمه ابتسامة جافة وهو يقول: «ثمة اشياء لم اكن اعرفها من قبل. لم أكن اعرف، مثلاً، أن الهررة التي في منزلكم تخص عمتي.»

عندما تردد في اكمال حديثه، عضت هي على لسانها تمنعه من التسرع في الانتقاد. ذلك أنه، إذا لم يكن محرجاً فعلاً، فهل تراه يجد متعة في التنازل أمامها بهذا الشكل لكي يفسح لها في مجال الشماتة به؟

ورفعت، متعمدة، كأس الماء إلى شفتيها، ثم انتظرت ان يتابع حديثه. وقال هو: «دفاعاً عن نفسي، أقول انها لم تتذكر أمر الهررة تلك قبل أمس. فقد كانت ذاكرتها منهكة، تتراوح بين الحضور والغياب على الدوام. ولكنها، في الأسبوع الأخير، عادت تقريباً إلى طبيعتها. مما جعلها تتذكر الأمر بوضوح. ومما تتذكره كانت هررها المدللة تلك.»

وفكرت تشارلي بشيء من التهكم، في أنها تدين، بخروجها معه هذه الليلة، إلى وجود تلك الهررة عندهم، كانت متأكدة من أن بول ما كان ليدعوها للخروج معه ما لم يكن قد غير شيئاً من رأيه فيها.

وقالت: «إن أسماء تلك الهررة هي «هاربو» و«غروشو» و«تشيكو». لقد اطلقت عليها الآنسة إميلي تلك الاسماء تيمناً بأسماء الأخوة ماركس.»

قال: «وأنت مازلت ترعين تلك الهررة منذ أشهر حتى انك وضعتها في منزلك؟»

أجابت: «انني أحب الحيوانات.»

شعرت بالارتباك وهي تسمع لهجته تتضمن الاعجاب بها إذ اصبحت معاملته لها اكثر رقة ولم يعد يسبب لها القلق والغيظ بأقواله كما اعتاد من قبل. وادركها الانزعاج وهي تلمس مدى تأثير نظراته عليها عندما تكون بهذا الدفء، لتصبح عيناه في منتهى الرقة والعمق وكأنهما بحيرتان تغوص هي في مياههما الهادئة.

قالت: «ما كنت لأستطيع ترك الهررة تلك وحدها في المنزل النهري وإلا...»

فقال: «كذلك بالنسبة لاحكامها. ان ثلاث هررة بالغة في حاجة إلى كمية كبرى من الطعام كل أسبوع.»

فقالت تشارلي بشيء من النفور: «هذا صحيح.» وعاد إليها الارتباك حين ادركت ان وجهها عاد إلى التضرج أكثر من قبل. إذ وجدت أن من المستحيل عليها الادعاء بأنها لا تفهم ما يعني بذلك. انها لا تستطيع مواجهة نظراته تلك التي اخرجتها من توازنها وجعلتها تتلعثم وهي تقول: «ولكن... انني...»

قال: «لا بد انها تكلفك كثيراً.»

فقالت: «ليس إلى هذا الحد... انني مسرورة بذلك. ان كل واحد غيري يفعل ما أفعله.»

تمنت لو يحول نظراته بعيداً عنها. ذلك ان نظراته المتفحصة تحرق اعصابها. إن تغيره الفجائي هذا، بعدما كانت قد اقتنعت بإدانته التامة بها، هذا التغير كان اكثر مما يمكنها احتماله.

أجابها: «كلا يا شارلوت. ليس كل واحد يفعل ذلك. هذا هو الموضوع. ان أي شخص غيرك كان يضعها في أي مطعم، ويأخذ فاتورة بمصروفها إلى العمة اميلي أو إلى وكيل اموالها، أو أي شخص وثيق الصلة عندما يحين الوقت. ثم ينسى كل شيء عنها. إن أي شخص لن يفكر أبداً بإحضارها إلى بيته، ليدفع ثمن طعامها من ماله الخاص. وماذا بالنسبة إلى الزهور؟»

كانت تشارلي على وشك رفع كأس العصير إلى فمها، آملة أن ترطب بذلك حلقها الجاف. وأخذ ذلك منها جهداً وهي تحاول أن تمسك يدها عن الارتجاف أمام أسئلة بول. إلى أي حد أطلعته الآنسة اميلي على ما حدث؟ وقال يسألها وهو يميل إلى الأمام: «وهذه ايضاً لم تقدمي فاتورة بثمنها إلى الوكيل. اليس كذلك؟»

قالت: «كلا.»

تحركت في مكانها بضيق وهي تتساءل، هل كان يتصرف بهذا الشكل عندما كان يلاحق احداث الصحف؟ إذا كان هذا، فلا عجب إذاً، في نجاحه في انتزاع الحقائق من اولئك الذين اعتادوا الكذب بسهولة. انها تشعر بأن ما

تختبره الآن ما هو الا جزء ضئيل من براعة اسلوبه... رأس القمة من جبل الثلج.. ومع هذا، فهي تشعر معه وكأنها تلقت صدمة قوية على رأسها.. إنه لم يحاول شيئاً لحملها على الاعتراف، كما يفعلون في التحقيق مع الجناة أحياناً، كأن يسلط نوراً إلى اعماق عينيها... فهو ليس في حاجة إلى ذلك، ان قوة شخصيته وحدها كافية لكي تسلب منها كل جرأة على الكذب.

وقالت: «رأيت ان من غير المناسب ان تكون في غرفة في المستشفى عارية باردة لا شيء حولها يضفي على المكان بهجة ونوراً.»

فقال: «حتى عندما كانت في البداية، شبه غائبة عن الوعي؟ وعندما كانت تستيقظ لم يكن في إمكانها ملاحظة شيء كهذا.»

اندفعت تقول: «هذا غير مهم. إذ انها لو حدث وانتبهت إلى تلك الأزهار مرة واحدة، فهذا يكفي.» من السخافة أن يضطرها إلى الدفاع عن نفسها بينما كل ما فعلته هو أنها ارادت ان توفر شيئاً من البهجة لسيدة عجوز مريضة. ولكن المشكلة هي أنها لا تستطيع ان تقرأ تعابير وجهه لتفسر ما الذي يكمن وراء كلماته.

قالت: «ولكن برايان أرسل زهوراً هو أيضاً.»

قال: «هذا واجبه.»

تلفظ بتلك الكلمتين بلهجة منخفضة خطيرة أرسلت قشعريرة في جسدها. وقالت تسأله: «لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟» لقد سبقتها هذه الكلمات قبل ان تتمكن من التفكير في مبلغ الحكمة من التلفظ بها.

وبدا على بول الاستغراب وهو يجيب: «أكرهه؟» وبدا كما لو أنه لم يفهم معنى هذه الكلمة تماماً. ثم تابع يقول، بصوت هادىء مزعج جعل تشارلي تفكر في أكف الهر الناعمة التي تخفي مخالبه القوية: «أنا لا أكرهه.»

وقالت له: «لا داعي للانكار.»

وبدا في لهجتها من القوة اكثر مما كانت تقصد، لقد كان التضارب بين ما أخذت تفكر فيه مؤخراً من الشعور بالميل إلى بول ما جعلها تتساءل عما إذا كان من الممكن ان يبدأ هو أيضاً في النظر إليها من زاوية مختلفة، هذا وبين عودتها المفاجئة إلى شعور العداوة الأولى منها نحوه، أضفى هذا التضارب تشديداً على كلماتها أكثر مما كانت تقصد فعلاً. وتوترت اعصابها وهي تراه يقطب حاجبيه لسماع قولها هذا.

وعادت تقول: «انك لا تقول عنه كلمة واحدة حسنة. فأنت تقلل من شأنه على الدوام كلما سنحت فرصة...»

ألقى عليها نظرة فولاذية باردة تنذر بالخطر.. نظرة تشبه السكين بحدتها وقسوتها، ولكنها حملت نفسها على تجاهلها. إن شعورها الجديد الغامض نحو ابن خالة بول، وواقع اكتشافها أن اللوحة التي رأتها في سيارته كانت هدية زوجة السيد هادج له في عيد زواجه السنوي، والاشاعات التي دارت في القرية بأن برايان دفع فيها أقل مما تستحق بمراحل نظراً للديون الغارق فيها صاحب اللوحة مما جعلها تعرف الحقيقة بالنسبة للوضع هذا. فقد كانت دوماً تعتبر بول هو الشخصية الشريرة في هذه القصة، ولكن ها هي ذي الأشياء تنقلب رأساً على عقب

ليظهر أن برايان هو الشخص الذي ما كان لها أن تضع ثقتها فيه.

سألته: «بماذا أساء إليك برايان؟»

أجاب: «لا شيء بالنسبة إلي شخصياً.» وأخذ بول ينظر إلى يديه فلم تعد هي ترى عينيه، ولكن شيئاً في ملامحه القوية ذكرها بما بدا عليه عندما سألته أمها مرة عن ماضيه فذكر لها كيف ذهب ليعيش مع خالته وزوجها.

وقالت تشارلي: «ولكنه من أقربائك، وقد قدم لك والداه السكن عندما توفي والداك.»

وخمد صوتها وهي تتذكر كيف انهى بول، يومذاك، قصته. لقد مكث مع خالته وزوجها ستة اشهر فقط، كما قال، ليذهب بعد ذلك إلى المدرسة الداخلية.

رفع بول رأسه قائلاً: «سأقول لك شيئاً.» وغاص قلب تشارلي وهي تنظر إلى عينيه اللامعتين، وانتابها شعور بانها ستسمع ما لا تحب، وتابع هو: «اتعرفين لماذا أرسلتني خالتي وزوجها إلى المدرسة الداخلية؟»

أجابت: «قلت ان مالية والديك ظهر فيها ما يكفي لارسالك إلى...»

فقاطعها: «هذا كان جزءاً من السبب فقط، الجزء المناسب بالنسبة إليهما. أما السبب الحقيقي فهو انني ضربت ولدهما الغالي... برايان الرائع.»

واجفلت تشارلي للسخرية الحاقدة في صوته، وهي تقول: «ليس في استطاعتك ان...»

قاطعها: «بل كان في استطاعتي ذلك، وقد كسرت أنفه.» وظهر في لهجته التشفي وهو يقول ذلك. وبدت على

وجهه ابتسامة تشع بالحقد الأسود، ابتسامة وحشية تتنافى مع مظاهر الأناقة والحضارة التي تحف بهما من كل جانب في هذا المطعم الجميل. وشعرت تشارلي باشمئزاز واضح، وتحركت في مقعدها بضيق.

وقالت: «لا يدهشني إذاً، أن يبعداك، يا لها من طريقة مريعة ترد بها جميلهما بعد ما استقبلاك وقدما لك منزلهما.»

قاطعها: «هذا بالضبط ما قاله زوج خالتي.» لقد اصبحت السخرية في صوته أكثر وضوحاً يشوبه عدم الاكتراث.

تساءلت تشارلي بعجب، أتراه لا يشعر بالذنب، ألا يندم على فعلته؟ أليس عنده ضمير مطلقاً؟ وبحركة عصبية، دفعت كرسيها إلى الخلف وهي تقول: «أريد ان اذهب إلى البيت.» ذلك ان كل مباهج هذه الأمسية قد تلاشت ليحل مكانها شعور بالتعفن والقذارة وكأنها قد مست بيدها شيئاً كريهاً، وإذا لم يكن برايان كما كانت تظنه من قبل، فهذا يعني انهما متماثلان وأن الواحد منهما أسوأ من الآخر.

سألها بهدوء: «هل أنت خائفة، يا شارلوت؟» كان واضحاً في صوته أنه فهم شعورها الذي دفعها إلى الهرب، ولكنه، مع هذا، رفع يده ينادي النادل. ودفعتها الكبرياء إلى ان ترد عليه بعنف: «كلا، أبداً.» ولكنها لعنت عدم تمكنها من تمالك اعصابها الذي تجلى في اهتزاز صوتها وتمنت لو لم تكشف عن مشاعرها بهذه السهولة فتظهر مثل هذا التحدي الفارغ. فهي لم تكن في حاجة إلى رؤية بول يرفع حاجبه ساخراً وهو يخبرها بعدم اقتناعه.

ولماذا يكون كذلك وهي التي لم تستطع حتى اقناع نفسها؟ وحملت تشارلي نفسها على مواجهة الحقيقة وقد تسارعت

دقات قلبها وتلاحقت انفاسها، وكادت تصاب بالذعر ولم تتحسن حالتها وهي تخرج من المطعم سائرة نحو السيارة وبجانبها بول يبدو، في الضوء الخابي، كشبح شرير.

لو كانت بمفردها، في الظلمة، مع ذئب جائع، لما كانت اكثر رعباً. وشعرت بساقيها تترنحان وهي تواجه واقع انها لا تستطيع ان تنهي الأمسية وتهرب الآن، ثم ان عودتها إلى المنزل ستكون بسيارته، ثم...

وخفق قلب تشارلي ألماً إذ رن في مسامعها، صوت بول آتياً من الماضي، من حيث دفنته في زاوية من ذاكرتها بهدف نسيانه، وهو يتمتم بخشونة: «أنا وأنت لن نكون مجرد صديقين فقط.» وبعد ذلك بلحظة، جاء صوته مرة أخرى من الماضي، يقول: «ثم إن الطعام ليس هو كل شيء احتاجه. انني متأكد من ان عندك مهارات أخرى يمكن ان تريحني.»

هذا هو الرجل الذي كانت ذاهبة معه الآن إلى بيتها الخالي. ولم تستطع ان تتمالك قشعريرة تملكتها إذ ان كلمة «البيت» لم يعد لها معنى الأمان، بل بالعكس، كان يعني التهديد، لم يعد يعني الملجأ منذ اقتحمه هذا الدخيل.

سألها: «ماذا جرى يا شارلوت؟»

أجابت: لا... لا شيء.»

كان ضوء القمر قد ذهب بلون عينيه الرماديتين ليظهرهما بشكل مرعب. وأحست كما لو كانت كلمة «هل أنت خائفة» التي سبق وسألها إياها، معلقة في الهواء بأحرف مضيئة.

وأخيراً قالت: «انني غير متأكدة من انني أريد ان اذهب حقاً إلى البيت.»

ورأت شفتيه تلتويان سخرية لتناقضها، وشعرت بأنها حشرت نفسها في الزاوية. فإذا هي بقيت، فسيظن أنها انما تريد البقاء معه، ولكن، إذا هما ذهبا إلى البيت... ولم تستطع ان تفكر في ما يمكن أن يتبع وجودها مع بول بمفردهما في المنزل. وبعد، انه الشخص الذي كسر أنف ابن خالته أثناء شجارهما. ومرة اخرى، شعرت بقشعريرة الخوف تتملك جسدها النحيف.

وقال لها بصوت منخفض أجش: «لا حاجة بك إلى الخوف. انني لم أؤذ إمرأة في حياتي قط، وأنا لا أنوي أن افعل ذلك الآن.» هل استطاع قراءة افكارها في عينيها؟ كيف امكنه ذلك بمثل هذه الدقة المحيرة؟

كان ثمة شيء في لهجته مس مشاعر تشارلي ودفعتها الغريزة إلى تصديقه في الوقت الذي حذرها فيه عقلها من التسرع في هذا.

قالت: «انني...» وسكتت لا تدري ماذا تقول. لقد كف عقلها عن التفكير عندما تقدم بول خطوة نحوها وهو يقول: «شارلوت...»

ومد يده يلامس وجنتها براحته التي اخشوشنت من العمل في المنزل النهري بينما عيناه بعمق وقتامة البحيرة في ضوء القمر.

وهمس وهو يحيط خصرها بذراعه الأخرى ويجذبها إليه برقة لا تقاوم: «صدقيني، لا يمكن ان اؤذيك أبداً.»

وتمتمت تشارلي: «بول...» ولكنها لم تعرف إذا كانت تحتج فعلاً، أم تشجعه، لأنه في اللحظة التالية، كان يحتضنها بين ذراعيه.

لقد شعرت وكأن رأسها يسبح في الهواء، والعالم يدور من حولها، فتمسكت بذراعيه تحتمي بهما، لتشعر بأن كل ذرة من الخوف شعرت بها، قد تلاشت وامحت.

ولم تعرف تشارلي كم بقيا على هذه الحال، غير واعيين للعالم حولهما. ولكن، في النهاية، فتح باب المطعم خلفهما ليتدفق النور منه منتشراً على اسفلت موقف السيارات، ويخترق خليط الأصوات والضحكات الضباب الذي يغشّي ذهنها. وتملصت من بين ذراعيه وهي تشهق مصدومة، ثم رفعت يديها المرتجفتين تسويان شعرها وملابسها. وتوقفت فجأة حركاتها المضطربة بعد إذ انتبهت إلى ان بول قد وقف ساكنا لا ينبس، يراقبها.

وقالت بصوت مرتجف: «من الأفضل أن نذهب.» وسكتت فجأة وقد عقد لسانها بعد ما ادركت انها لم يعد في استطاعتها ان تقرر ما إذا كان عليها أن تذهب أو تبقى بعد ان وضعها في هذا الظرف... فهي تحاول ان تقرر ما إذا كان وجودها معه الآن في المنزل بمفردها سيكون مصدر رعب أم سرور.

وبينما كانت تقلب الأمر في ذهنها، لا تدري ماذا تقول، انتزع بول منها القرار ليقول: «سنقوم بجولة في السيارة.» وأمسك بيدها يجرها معه متجهاً نحو السيارة.

وتساءلت الآن عن الأسوأ، أهو أن تكون معه بمفردها في المنزل، أم البقاء هنا في السيارة معرضة للاغراء بجانبه؟ إنها، في المنزل، يمكنها على الأقل ان تبقي فسحة بينهما. ولكنها حالاً، ساءلت نفسها عما إذا كانت هي حقاً تريد تلك

الفسحة أم لا. وارهقت احاسيسها والسيارة تنطلق بهما بقيادة بول الماهرة.

وقال: «انها أمسية رائعة.»

اهتزت عندما اخرجها صوته من خضم افكارها، من عالم الأحلام، إلى عالم الواقع، وشعرت بذهول يقرب من الاهانة لدى سماعها صوته العادي المتزن الذي كانت تنقصه المشاعر مما انعكس على قيادته ضبطاً واتزاناً. كان صوته وقيادته يشيران إلى السرعة التي استعاد بها توازنه الذهني، ولم يكن عندها هي شيء من طاقته تلك. ولم تساعدها مشاعرها المضطربة، والانفعال الذي يعصف بكيانها على ان ترد على تعليقه البارد ذاك سوى همهمة غير مفهومة.

ما الذي يجري لها؟ لقد شعرت مرة أخرى وكأن مشاعرها تفلت من عقالها بصورة خطرة. فترتفع حيناً، لتنخفض أخرى في اللحظة التالية. كيف حدث أن تغيرت مشاعرها من الكراهية لبول، إلى الاستمتاع بصحبته، رغم الخوف الذي تملكها منه؟

ونبهتها الحقيقة القاسية إلى ان مشاعرها هذه نحو بول، لا تلقى تجاوباً منه وذلك من السرعة التي تخلص فيها من مشاعره هو، هذا إذا كان قد أحس في الواقع، باية مشاعر. وكونها وقعت في خضم مشاعر كهذه، فهذا لا يعني أن مثل هذه المشاعر قد انتابته هو أيضاً. وإذا كان لها أن تواجه الحقيقة، فإن سرعة تمالكه لنفسه اثبتت أنه لم يشعر بشيء، وكررت تشارلي لنفسها بمرارة، لا شيء اطلاقاً، وهي ستكون حمقاء لو أنها اعتقدت العكس.

الفصل التاسع

قال بول وعيناه لا تفارقان الطريق: «لا بد أن ننزل عند البحيرة، فهي تبدو رائعة في ضوء القمر.»

وإذ تنكرت تشارلي أن هذه البحيرة اعتاد الناس تسميتها ببحيرة العشاق إذ كانت مقصداً للمتحابين، لم تستطع ان تتفوه بكلمة، وصدرت عنها، مرة أخرى، تلك الهمهمة التي اتخذها بول شاهداً على قبولها حين استدار بالسيارة نحو الطريق المتفرع من القرية. وبعد عشر دقائق، أوقف السيارة، ليميل بظهره إلى الخلف وهو يتنهد راضياً.

وأشار بيده إلى صفحة المياه الممتدة العميقة الساكنة سكون المرآة، تنعكس فيها صورة القمر موحشاً ساكناً في هدأة الليل.

ولم تتمالك تشارلي نفسها من التساؤل، كم من النساء أحضر إلى هذا المكان، في الماضي؟ وهل كان بول، مراهقاً وفتى، يستغل تلك الظلال حول شاطىء بحيرة العشاق؟

قال بول بهدوء: «لسن كثيرات.» لتدرك هي انها قد نطقت بالقسم الأول من هذا التساؤل بصوت عال.

وابتدأت تقول بارتباك: «انني...» ولكن بول استدار نحوها عند ذاك، وعيناه بمثل قتامة البحيرة تلك، فتلاشت الكلمات على شفتيها، وارتسمت على شفتيه ابتسامة بطيئة

جذابة، وهو يقول: «لقد كنت احضر فقط إلى هنا الفتيات اللاتي اكنّ لهن شعوراً خاصاً.»

وتساءلت هي، مرة أخرى، أين موضعها هي مما يصفه هو، بالفتيات اللاتي يكن لهن شعوراً خاصاً...

قال بول: «انك تشعرين ببرد. سأعيدك إلى المنزل.»

فقالت: «كلا...» انها، هذه المرة ايضاً، لا تريد العودة إلى المنزل، ولكن لسبب مختلف الآن، ذلك أن ابتسامة بول وصوته، اخرجاها من عالم الحقيقة، إلى عالم سحري في ليلة صيف، حيث السكون وبحيرة القمر الرائعة. وتابعت قائلة: «أريد أن أتمشى قليلاً حول البحيرة.» وفتحت باب السيارة وخرجت منها وهي تقول له: «هل ترافقني؟»

بدا من صفقه لباب سيارته معنى التصميم، النقطة الفاصلة... نهاية عهد وبداية عهد آخر مما جعل تشارلي ترتعش مرة أخرى لدى تفكيرها في ما عسى ان يكون معنى عملها هذا. ومرة أخرى، فهم بول ارتعاشها هذا على أنه تأثر ببرودة الليل. فخلع سترته ووضعها حول كتفيها. وتلاقت اعينهما برهة. وجف حلقها، وتوترت اعصابها متوقعة ان يحيطها بذراعيه كما فعل منذ فترة في موقف السيارات.

لكن، فجأة تغير مزاج بول. وتحولت ابتسامته الجذابة إلى ابتسامة صبيانية عريضة مما جعله يبدو أحدث سناً باعوام، ثم القى بقبلة خفيفة على طرف انفها كأنها لمسة الفراشة قبل أن يمسك بيدها، ثم يقودها في الممر المؤدي إلى حافة المياه.

وتعثرت هي في سيرها خلفه، جاهدة في تمالك

مشاعرها، وهي تفكر في تلك الابتسامة الصبيانية التي جعلتها تتخيل وكأن كل تلك السنوات، منذ كان بول فتى حدثاً، قد تلاشت ليعود مرة أخرى ذلك الفتى، وتصبح هي واحدة من تلك الفتيات ذوات الاعتبار الخاص عنده!

وأثناء سيرهما، كان الصوت الوحيد الذي يخترق السكون حولهما هو ارتطام المياه بالحصى على حافة البحيرة. ولكن بول ما لبث ان وقف وأخذ يحدق في وجه البحيرة القاتم الساكن، وهو يتأوه، مرة أخرى، راضياً، وهو يقول: «في وقت مثل هذا، أتساءل أنا عن السبب الذي جعلني أفكر بالأسفار.»

هل ما يحدق به من جمال، هو الذي جعله يفكر بهذا، أم أنها من الحماقة بحيث تسمح لنفسها بالاعتقاد بأن وجودها له علاقة بمزاجه هذا؟

وسألته: «ألا يبدو لك هذا المكان صغيراً جداً بعد كل البلاد التي شاهدتها؟»

وتمنت تشارلي أن لا يبدو صوتها بالخشونة التي أحستها هي بها. ووضع بول ذراعه حول كتفيها يجذبها نحوه. وتسارعت خفقات قلبها وهو يقول: «صغيراً؟ ربما، ولكن كما يبدو لك كل شيء احببته عندما كنت صغيرة، وعندما عدت إليه عندما كبرت، وجدته قد تقلص.»

كان صوته دافئاً وهادئاً ووجدت تشارلي نفسها تتجاوب معه في نفس الطريقة ليتلاشى التوتر من جسدها حتى انها استندت إليه دون تفكير. وقد شعرت لأول مرة منذ قابلته عند بيت الدجاج، بالارتياح إلى وجوده.

وسألته وقد شعرت فجأة بأنه سيصدقها القول: «هل سبق وفكرت في أن تعود يوماً لتستقر في انكلترا؟»

فأجاب بسرعة بصوت مفعم بالمشاعر: «كثيراً. لقد كنت اشتاق احياناً إلى يوركشاير والمنزل النهري بشكل لا يصدق. وفي غواتيمالا عندما...»

سكت فجأة، وقد تصلب جسده فشعرت هي بذلك حيث كانت مستندة إليه.

وقالت هي تشير إلى القسم الأول من حديثه، متجنبة ما قد يريد ان يحتفظ بذكره بشأن وجوده في غواتيمالا: «الشوق فقط إلى يوركشاير؟ ألم تفكر قط بالعودة إلى كندا؟»

أجاب: «سافرت مرتين إلى هناك. ولكنه لم يكن قط وطناً حقيقياً. فقد كنا دائمي التجوال. ذلك أن أبي لم يشأ ان يستقر في مكان واحد تمتد جذوره فيه. وهكذا ترين أن ليس ثمة مكان ننتمي إليه فعلاً.»

وعادت تسأله، وقد ساورها العجب من السهولة التي يجيب هو فيها عن اسئلتها المتدفقة: «وماذا بالنسبة إليك أنت؟ أما فكرت قط في الاستقرار ومد الجذور؟»

فأجاب: «لقد فكرت في ذلك فعلاً. ولكن، كان هنالك دوماً شيء مفقود.»

وسألته: «ولكن، إذا أنت فعلت ذلك، فهل ستكون انكلترا هي التي ستعود إليها؟»

ما الذي كانت تفعله؟ هل كانت تحاول حمله على الاعتراف برغبته في شيء سبق واخبرها بوضوح أنه لم يخلق له؟ ولكنها دهشت حقاً حين أومأ بول برأسه موافقاً وهو يقول: «قد تكون هذه الجزيرة، انكلترا، باردة ورطبة،

ولكنها سرقت قلبي منذ عشرين عاماً.» وأضاف ضاحكاً: «انما لم تعد هذه صفاتها، هذه الأيام.»

فقالت: «بالضبط. ذلك أن الناس ابتدأوا يتحدثون عن امكانية حدوث قحط. وأنت تعرف جيم العجوز. انه متشائم جداً بالنسبة لما سيحدث مستقبلاً.»

فقال: «اعرف ذلك. لقد سمعته مرة يتحدث في مكتب البريد. كان يقول وهو يومىء بيديه متحدثاً بلهجة سكان بارفورد كبار السن: «الأشياء غير طبيعية، والنتائج سيئة جداً. ستكون الحياة كالجحيم. سجلوا عليّ هذا الكلام.»

قالت تشارلي: «نعم. هذا هو كلام جيم العجوز المعتاد.» وضحكت وهي تتابع: «انه ممتلىء بالتكهنات المتشائمة ولا يفتأ يتحدث عن الأحزان والمآسي، ويوم الحساب، عندما يرى الأشياء تمضي على غيرما يظن انها يجب ان تكون.»

وابتسم بول لها وهو يقول: «اظنه شخصية رائعة. اظن ان كل قرية يجب ان يكون فيها من يتحدث بلهجتها القديمة.»

فقالت: «انه كذلك فعلاً.» وتلاشى ضحكها الذي اخمدته مشاعر نتجت عن تلك الابتسامة التي مثلت لها نوعاً من المشاركة العفوية شاعرة بأن بول يفتح لها قلبه.

وعندما يبدو بول بهذا الشكل، تشعر هي بالمتعة في صحبته وكأن كل توتر او عداء بينهما لم يحدث قط، حتى لكأن رقرقة الأمواج وهي ترتطم بالحصى على ضفاف البحيرة قد غسلت كل ذكريات ذلك التهجم والاتهامات كما تغسل الأقذار عن تلك الحصى لتتركها بعد ذلك نظيفة متألقة. لقد شعرت حقيقة، أن في إمكانهما ان يبدءا من جديد وكأنما تراجع الزمن إلى الوراء ليعودا مرة أخرى، عاشقين

صغيري السن جاءا إلى هذا المكان، وقد ملأتهما البهجة بتعارفهما الحديث.

قالت بحماس: «انني مسرورة لمجيئنا إلى هذا المكان.»

قال: «وكذلك أنا.» وجذبها إليه يحتضنها بحركة سريعة، وهو يتابع. «ولكن يجب علينا ان نذهب الآن...»

وقالت محتجة: «كلا، ليس بعد.» ورأت في ملامحه علامات الذهول للحماس الذي تجلى في صوتها، وابتدأ بالقول: «ولكن...» وعبس متسائلاً وقد غلب عليه التردد.

كان في هذا العبوس المتسائل وفي هذه اللمحة من شعور بالغ الرقة ما لم تتعوده في شخصية بول ساريزن... وبحركة سريعة، استدارت إليه تواجهه، ثم طوقته بذراعيها، رافعة وجهها إليه وقد تألقت عيناها في ضوء القمر.

وما كان لها أن تلوم سوى نفسها، عندما انكب هو عليها يحتضنها بين ذراعيه، وقد امتزجت خفقات قلبه بخفقات قلبها.

«بول» وخرج اسمه من بين شفتيها مصحوباً بآهة من أعماقها، ورفعت ذراعيها تطوقان عنقه وتجذبان رأسه إليها. ولكن، لترتفع يداه فجأة تمسكان بيديها، بقبضتين من حديد. وما أن شعرت بضغط هاتين القبضتين تشعرانها برفضه وعدم رغبته في ما تريد، حتى عاد إلى ذاكرتها صوته وهو يقول بابتسامة متشفية، لقد كسرت أنفه، لتخمد عواطفها المضطربة في اعماقها كما يخمد الماء النار.

وقالت هامسة: «بول...» ولكنه تجاهلها وهو يبعد وجهه عنها، ثم يرفع يده يسوي من شعره بضيق.

واكتوى قلب تشارلي بالألم، وجاهدت في كبح شهقة أسى. لقد انسحب من بين ذراعيها تماماً وقد تصلب جسده

رافضاً بصمت، وفجأة، شعرت بسكون تلك الليلة الرائع يستحيل ظلمة مخيفة باردة يملؤها الوعيد. وبعد لحظة، انحنى بول يلتقط سترته التي كانت قد انزلقت إلى الأرض من على كتفيها دون شعور منها، وهو يقول بصوت حسم كل جدال: «سنذهب إلى البيت.»

وقطعا الطريق إلى البيت بسرعة تثير الأعصاب وقد سيطر عليهما صمت متوتر. وشعرت تشارلي بالضيق الذي سبق واستولى عليها، شعرت به يعود إليها بكامل قوته مما جعلها تتصلب في مقعدها طوال الوقت شاعرة بما يشبه الغثيان في معدتها.

وعليها أن تواجه تواجدهما بعد قليل، في البيت بمفردهما. وزاد ضيقها وهي تفكر في ذلك، متسائلة أية شخصية من شخصيات بول المتعددة التي رأته عليها هذه الليلة، ستراه بها عندما يضمهما البيت، هل ستكون تلك الشخصية العدائية المتهجمة التي رأتها في أول لقاء بينهما، أم ذات الوجه البارد التي كرهتها، أم تلك الشخصية الخطرة وهو يتحدث، دون ندم، عن كسره أنف ابن خالته، أم تلك الشخصية التي يبدو فيها فتى خالي البال كما بدا عند البحيرة. أما شخصيته تلك، التي تمثله رجلاً محموم العواطف والذي ايقظ الرغبة في اعماقها، فهذا ما لم تشأ أن تتذكره. إن من الخطر الشديد، حقاً، ان يضمهما منزل واحد بمفردهما.

وأخيراً، عندما وقفت السيارة امام منزلها، قررت ان الحل الوحيد هو أن تأخذ هي المبادرة. فإذا هي تكلمت بلهجة جادة بقية تلك المساء، فإن بول سيفهم حتماً معنى ذلك. والأفضل،

لها أن تعود إلى شخصية المؤجرة لتعامله كمستأجر عندها لا أكثر، فتكون العلاقة بينهما علاقة عمل فقط. وهكذا، كانت تنزل من السيارة حال توقفها، ومفتاح المنزل في يدها، لتجتاز الممر بخفة إلى داخل المنزل وهي تنير الأضواء في طريقها إلى المطبخ، لتمسك بإبريق الشاي.

وتمتم بول وهو يقف خلفها عند الباب: «انها النهاية المعتادة لكل موعد غرامي.»

وقالت بجفاء: «كلا، ليس الأمر كذلك. انني اقدم إليك شراباً ساخناً بصفتك مستأجراً عندي، وهي ليست دعوة من هذا النوع ثم لم يكن بيننا أي موعد غرامي.»

فقال ببطء ساخر جعل تشارلي تصر بأسنانها: «ما هو بالضبط نوع الدعوة التي ظننت انت انني افكر فيه يا ترى؟» وازداد اشتداد قبضتها على الابريق.

وبقيت هي مولية ظهرها له لكي لا يرى تأثير كلماته على وجهها، مع ان الطريقة التي دفعت فيها الإبريق تحت صنبور الماء، كشفت عما تشعر به من ضيق بالغ.

وقالت، غير راغبة في أن ترد على استفزازه لها: «والآن، هل تريد قهوة أم لا؟»

قال: «لا.» وأدهشها أن ينطق بهذه الكلمة المفردة الخالية من سخريته السابقة، فاستدارت تواجهه بدهشة لكنه قال: «اظنني سأصعد مباشرة إلى فراشي فقد تعبت اليوم بما فيه الكفاية.»

وفكرت تشارلي في أنها ادركت شعوره جيداً. ولأول مرة، نظرت إليه في النور لتعترف، بينها وبين نفسها، انه يبدو حقاً متعباً، وفي الحقيقة، لم تكن كلمة متعب لتعبر عن

حالته تماماً... ذلك أنه بدا متهالكاً على قدميه. كان الامتقاع الخفيف على وجهه، والظلال تحت عينيه، كل هذا ذكرها بأول يوم جاء فيه إلى منزلهم.

وقالت بتحفظ وهي تلقي نظرة على ساعتها ادركت منها أنهما امضيا، عند البحيرة، وقتاً أكثر مما تصورت. قالت: «الوقت متأخر.» وسمعت صوتاً يقول في اعماقها، «لقد انتهى الوقت الذي كنت تمتعين به نفسك.»

وأقفلت صنبور الماء وهي تقول: «إذاً، فأنت لا تريد قهوة.»

فأجاب: «كلا، شكراً.»

ونظرت إليه وهو يخرج من المطبخ صاعداً إلى غرفته، وقد تملكها احساس بالفراغ، كبالون وخز بدبوس فتهالك بعد أن تسلل منه الهواء، لقد كانت اعدت نفسها لمواجهة معه دون تفكير في ما عسى ان تكون ردة الفعل عنده. ولكنها لم تتوقع هذا. واعترفت، بحماقة، بخيبة أملها.

(لقد تعبت اليوم بما فيه الكفاية) هذه كانت كلمات بول، فهل كان يعني الكفاية، من كل شيء بوجه عام؟ أم أنه كان يعنيها هي، تشارلي، بالتحديد؟ ولكنها، عندما تذكرت كل تلك الليالي التي أثار استغرابها فيها بصعوده إلى فراشه في ساعة مبكرة، عادت تنظر إلى ما قال على ضوء مختلف، فأسرعت خلفه إلى القاعة، وهي تسأله: «هل أنت على ما يرام؟»

وتوقف هو بينما يده على حاجز السلم وقدمه على أول درجة منه، وهو يجيبها قائلاً: «انني بخير.» وعاد يصعد السلم، ولكنه توقف ثانية وكأن فكرة خطرت بباله، واستدار ينظر في اعماق عيني تشارلي ثم قال: «انك لم تجيبي أبداً عن سؤالي.»

ردت: «أي سؤال هو؟»

فقال: «سألتك ان كنت تفضلين حياة المدينة على بلدة بارفورد هذه.»

قالت: «آه، ذلك السؤال.» وجعلتها ذكرى الجو الذي دار فيه هذا السؤال، في ذلك المطعم، تتنقل في وقفتها، بقلق، من ساق إلى أخرى وهي تستطرد دون تفكير: «ليس ثمة مجال للمقارنة، في الحقيقة، انني لم أحب قط حياة المدينة ان الشيء الوحيد الذي أفتقده هو، كما سبق وقلت، الخروج والطواف في الأنحاء.»

فقال: «كذلك أنا. لقد قررت أن الوقت قد حان لكي أقوم باكتشاف المناطق الريفية في هذه الأنحاء، فهذه هي المرة الأولى، منذ سنوات، التي أجد فيها فرصة تزيد عن عدة ايام قليلة. وهكذا قررت أن استفيد منها في اكتشاف المكان حولي.» وتردد برهة وكأنه يفكر في شيء خاص، ثم عاد يقول: «ربما تحبين أن تأتي معي؟»

أجابت وقد خافت من أن يظن أنها تلمح إلى الخروج معه ليلة أخرى: «أوه، انني لم اقصد...»

فقاطعها: «اعرف ذلك، اسمعي. انني اعرف انك لا ترغبين في الخروج معي في موعد غرامي مرة أخرى...» وشدد على كلمة «معي» وهو يتابع: «ولكنني لم اكن افكر في هذا. إذ انني، كما قلت، اريد ان اقوم باكتشاف المناطق الريفية حولنا، ويبدو لي أن من الخسارة ان استعمل السيارة لنفسي فقط في الوقت الذي تحبين أنت ان تقومي بمثل هذا العمل، وهكذا، أنا اقدم لك هذه الدعوة، فهل تريدين المجيء معي أم لا؟ ان الأمر، في هذا، يعود إليك.»

لم تكن هذه دعوة شاعرية، ولكنها، بالنسبة إلى

تشارلي، كان القبول بها أسهل عليها؛ ذلك أن أية دعوة اقل ارتجالاً ما كانت وهي في حالتها هذه، إلا لتلقى الرفض منها على الفور دون أي تفكير مسبق ولكن مثل هذه الدعوة العادية البسيطة، فهي تقبلها طبعاً، وبعد، فإنها تتمنى فعلاً، الخروج اكثر مما تفعل الآن. فهي قد امضت في هذه البلدة قرابة العشرة اشهر دون ان تخرج منها، ما عدا رحلات إلى ليدز في المناسبات. وربما لم تكن تريد ان تعود إلى المدينة لتعيش فيها مرة أخرى، ولكنها كانت فقط في الرابعة والعشرين من عمرها، فهي في حاجة إلى شيء من المتعة في حياتها.

وأخيراً قالت بتحفظ: «لا بأس. أظنني سأحب ذلك.» كان ذهنها مازال غير مستوعب الفكرة تماماً.

وقال لها متهكماً مما جعلها تجفل: «انما لا تفرطي في الحماس اكثر مما يجب.»

فقالت: «انني أحب ان آتي معك.» وسرعان ما أدركت كيف أن وخز كلماته جعلها تسارع في التاكيد، رغم عدم تاكدها من شعورها الحقيقي.

قال: «حسناً، سأراك إذاً، في الصباح.» هل كان حقاً متعباً إلى هذا الحد؟ تساءلت تشارلي وهي تعود إلى المطبخ، أم لعله كان يقصد أنه سئم ونال الكفاية من مرافقتها؟

وغيرت رأيها فلم تصنع لنفسها فنجان قهوة مفضلة على ذلك كوباً من الحليب قد يساعدها على النوم، إذ شعرت بأن انفعالها، والارتعاش الذي تشعر به لن يمكّناها من النوم بهدوء دون أن تبدأ في استعادة ما حدث في ذلك المساء مرة بعد مرة.

لماذا كان احتضانه لها؟ ربما لم يكن ذلك يعني شيئاً، بالنسبة إلى بول على الأقل. وأخذت ترشف الحليب ببطء حتى ينتهي بول من استحمامه، ثم يدخل غرفته. كانت تفكر في تصرفاتها تلك... ان الطريقة التي احتضنته فيها، طالبة منه معانقتها، جعلت رفضه لها في غاية الاحراج. ومن الواضح ان ذلك كان السبب في اسراعه في العودة، ثم ادعاءه برغبته في الصعود إلى غرفته حال وصوله، أما عناقه لها فلا بد أنه كان بالنسبة إليه، شيئاً عادياً لا يحمل أي شعور خاص، بعكسها هي.

لم يسبق لها قط أن تصرفت مع رجل من قبل بهذه الطريقة. حتى ولا مع تيري عندما كانت تظن نفسها مغرمة به. ومن يدري ما عسى أن تكون فكرة بول عنها الآن.

لم تفكر تشارلي، إلا بعد أن استقرت في فراشها، في أن احداث تلك الليلة لو كانت قد سارت في طبيعتها المقررة، لما ذهبت هي إلى ذلك المطعم مع بول، بدلاً من آنيت، هذا المساء. ولو كان هو قد ذهب مع تلك الفتاة، هل كان قد تصرف معها بشكل مختلف؟ وهل كان سيأخذها إلى البحيرة وهل كان سيعانقها في ضوء القمر؟ ثم هل كان سيوصلها إلى بيتها ويعود، أم أنه سيدخل معها إلى بيتها؟

وانتابتها، لكل هذه الأفكار، وخزة مؤلمة أدركت تشارلي منها أنها الغيرة، لتتسمر نظراتها على الجدار أمامها دون أن ترى شيئاً. هل هي، تحب بول؟

نعم. لقد كانت تحبه، رغم انكارها الدائم. ومحاولة تجنبها الاجابة، كان جوابها نعم وأن ذلك ما كانت تشعر به حقيقة، واعترافها بذلك لنفسها جعلها تواجه حقيقة أنه لا

يبادلها هو حباً بحب، فهو لم يخرج معها هذا المساء إلا بعد خذلان آنيت له، في المقام الأول. فهي لم تكن إلا بديلة لها. بديلة تسد الحاجة مؤقتاً لهذا المساء. وانحدرت دمعة ساخنة من عيني تشارلي وهي تشعر، في ظلام غرفتها ذاك، بأقسى ما يمكن أن يشعر به محب وأشده إيلاماً.

الفصل العاشر

اختارت تشارلي ارتداء قميص خفيف دون اكمام، فوق سروال قصير في ذلك اليوم الحار من أيام شهر حزيران ـ يونيو ـ الذي سطعت فيه الشمس في سماء خالية من الغيوم، والذي جعلها تترك سترتها الخفيفة خلفها في السيارة.

وقالت لبول لاهثة وهي تجر قدميها صاعدة ذلك المنحدر وراءه: «كان نزولنا من هذا المنحدر، جميلاً، بعكس الصعود إليه.»

أجاب: «جميل أنك لم تعيشي في العصر الفيكتوري، وإلا كان تخطيك هذا التل مختلفاً تماماً.»

تنهدت تشارلي وهي تقول موافقة على كلامه: «هذا صحيح، تصور انني ارتدي تنورة منتفخة تصل إلى كاحلي في مثل هذا الجو الحار. وليس بمستغرب ان النساء، في ذلك العهد، كن كثيرات الاغماء. وانني مسرورة لوجودي في هذا الزمن.»

فقال وهو يلقي نظرة رضا على ساقيها الطويلتين النحيفتين المسمرتين قليلاً من تعرضهما لأشعة الشمس والبارزتين من السروال القصير الذي ترتديه: «وأنا أيضاً مسرور.» وسرّت هي لإطرائه، ومنحته ابتسامة سريعة لا يبدو فيها أثر من ذلك الارتباك الذي ازعجها أمس. وبدا هذا التغيير الذي ساد علاقتهما في مدى نصف يوم فقط، مدهشاً حقاً.

في الواقع، كان ما حدث مدهشاً منذ البداية. ذلك أن بول، عندما دعاها إلى الخروج معه في تلك الجولة

الاستكشافية، كانت ماتزال تتوقع منه ان يتجه رأساً نحو المدن، على الأقل مدينة يورك، ولهذا، تحيرت وهي تراه يدخل بها أعماق الريف متجهاً بالسيارة في الطرق التي تتجه صعوداً إلى أن اصبحا في البراري حيث المراعي الخضراء، كان قصدهما الوصول إلى هاوورث بلدة الأخوات برونتي، وبعد أن زارا المنزل الذي تحول الآن إلى متحف، تابعا صعودهما في طريق شديد الانحدار يفتشان عن مكان يتناولان فيه القهوة والفطائر المصنوعة في البيت والتي اعترف بول بولعه بها.

وقالت تشارلي: «اتعلم؟ انني أظن أن اميلي برونتي ما كانت لتحب كل هذه الأشياء.» كانت تشير إلى الجماهير النشيطة والحوانيت التي تبيع التذكارات المتنوعة والتي تحمل لافتاتها أسماء مستمدة من روايات الأخوات برونتي، وتابعت: «إذ من المعروف انها كانت شخصية انطوائية، حتى انها كانت تخفي كتاباتها عن شقيقتيها، انني لا اصدق انها كانت تقبل بأن يتحول منزلها إلى مقصد للسياح.»

قال بول موافقاً على كلامها: «نعم، من الصعب تصور العالم الذي كتبت عنه، إزاء كل هذا. إذ كنت تحبين المشي، يمكننا أن نصعد إلى تلك المراعي حيث نكمل سيراً على الاقدام إلى قمة ويذينس التي هي الاسم الذي يفترض إنه اسم مرتفعات ويذيرينغ الذي اطلقته اميلي على روايتها.

لم تكن تشارلي في حاجة إلى كثير من الاقناع لكي تهرب معه من هذا المكان الذي يكثر فيه التدافع والتزاحم.

وقالت بحماس: «هيا، فلنذهب. فأنا سأصرخ إذا داس على اصابع قدمي شخص ما مرة أخرى.»

بعد ذلك بمدة قصيرة لم يتوقفا اثناءها، إلا لشراء بعض السندويشات والعصير، وجدا نفسيهما في القرية التي تأتي بعد هاوورث ليتوجها منها نحو المراعي والشلال حيث يقال إن الاخوات برونتي كن دوماً يتنزهن.

وتنفست تشارلي بعمق وهي تتنهد بارتياح قائلة: «هذا أحسن. انني استطيع هنا أن اتنشق الهواء النقي مرة أخرى.»

ورد بول عليها بنفس الابتسامة العفوية الهادئة التي كانت على شفتيه طيلة النهار، مما جعلها تفكر بالدرجة التي تغير فيها منذ بدء رحلتهما هذه. فمنذ نزل من غرفته ليتناول الفطور هذا الصباح، اختفت تلك الظلال من تحت عينيه والتي كانت تسبغ الشحوب على وجهه الليلة الماضية، ظهر بوضوح ان مزاجه قد تغير مرة أخرى، فقد تبدل الرجل الصعب المتجهم الذي كانه، ليحل محله مرافق سهل القياد حسن المعشر لم تجد صعوبة في تبادل الأفكار معه دون أن تجد حاجة للتفكير في كل مرة قبل أن تقول شيئاً.

وقالت له: «اتعلم أن أمي سمتني شارلوت تيمناً بشارلوت برونتي التي كانت معجبة جداً بروايتها «جين إير»؟»

فقال: «وكنت اظنك تفضلين كتابات اميلي؟» فأومأت تشارلي برأسها فتألق شعرها الكستنائي الفاتح تحت اشعة الشمس بلمعات برونزية وذهبية، وهي تقول: «لقد كانت شخصية متفردة متحررة حتى بالنسبة لعصرها ذاك. وأظن ان تشارلوت كانت اكثر تمسكاً بالتقاليد من اميلي التي كانت ذات روح متحررة طليقة.

وقال بول يتلو ببطء: «إن روحي ليست بالجبانة.

فسألته: «ما هذا الذي تقوله؟»

أجاب: «إنه بيت من قصيدة شعر لاميلي برونتي. لقد كنت دوماً أشعر بأن هذا البيت يلخص شخصيتها.»

قالت: «ان بيت الشعر هذا يلخص شخصيتها بالتاكيد، كما قلت أنت، إن التفكير فيها هو اكثر سهولة في هذا المكان... انني اتصورها هنا، مع كلبها الضخم ذاك، ماذا كان اسمه؟ ذلك الكلب الذي رأينا صورته في المتحف.»

أجاب: «اسمه كيبر.»

فقالت: «نعم كيبر.» وكان الفضول هنا قد استبد بتشارلي وهي تسأل: «كيف تعلم كل هذه الأشياء عن الأخوات برونتي؟ انني لا اظن انهن النوع المفضل من الكتاب الذين تحب ان تقرأ لهم.» وتابعت مسرعة خشية أن يشعر بالاستياء: «اعني ان كتابات الأخوات برونتي تفضلها، عادة، النساء.»

ولكن بول ابتسم واجابها دون تردد: «لقد كانت كتابات اميلي هي المفضلة عند عمتي، خاصة لأنها تحمل اسمها. وهي مثلك تفضلها على كتابة أختها شارلوت، وعندما كنت اسكن معها، كنا نقرأ هذه الكتب بالتناوب بصوت عالٍ في أمسيات الشتاء.»

وحاولت تشارلي تصور هذا المشهد لبول ساريزن وهو يقرأ بصوت عال لامرأة مسنة... كانت صورة اكثر الفة مما تعرفها عنه صحافياً يجوب البلاد دون ان يستوطن واحداً منها.

وعاد هو يقول: «اثناء العطلة من المدرسة الداخلية، رفضت خالتي وزوجها استقبالي في منزلهما.» وأضاف بحسرة لم تتوقعها منه: «وانا لا ألومهما. وهكذا اخذتني عمتي اميلي إلى منزلها.»

فقالت تشارلي: «لم اكن أعلم انك كنت تسكن في

المنزل النهري، وإنما كنت اظنك تزوره من وقت لآخر.»

قال: «كلا. لقد كنت امضي كل إجازاتي هناك منذ كنت في الرابعة عشرة حتى دخلت الجامعة واقمت في لندن. كان المنزل النهري هو المنزل الوحيد الذي اعرف.»

وعلمت تشارلي، من هذا، سبب عشقه لذلك المنزل. ولماذا أحب عمته إلى هذا الحد. كان حبه لها واضحاً من الساعات الطويلة التي امضاها قرب سريرها في المستشفى منذ عودته منذ اكثر من ثلاثة اسابيع إلى بارفورد.

وألقى عليها نظرة من عينيه الرماديتين اللامعتين كالفضة وهو يقول: «انظري إلى الشلال هناك.» وكأنما فهم شيئاً مما يجول في ذهنها وتعكسه ملامحها، فقال باسماً: «يبدو أن شيئاً من خيبة الأمل، يراودك، أليس كذلك؟»

تمتمت هي بما يعني الموافقة، محاولة أن تعيد نفسها إلى الواقع لكي تنسى السهولة التي خدعت بها بتصرفات برايان.

وقال بول وهو يرمقها، مرة أخرى، بنظرة متفحصة: «كل شيء هنا منظم ومصطنع، ونرجو ان تكون قمة ويدنيس طبيعية اكثر من هنا. اتريدين أن نمكث هنا فترة؟»

فأجابت وهي تهز رأسها لكي تتخلص من أفكارها: «كلا. ثمة اناس كثيرون هنا، والأفضل أن نذهب إلى مكان أكثر هدوءاً.»

قال: «إذن حاذري، لأن الطريق هنا وعر.» وفعلاً، غابت معالم الطريق المسلوكة مما صار من الطبيعي أن يمد بول يد المساعدة إليها كي يجنبها التعثر وهي تتسلق التل. ولكن، ما لم يكن متوقعاً، هي المشاعر التي تملكتها حين تشابكت اصابعهما، مما أرسل في جسدها موجة من

الحرارة ليست لها علاقة بالشمس المحرقة فوقهما. وهكذا، عند وصولها إلى القمة، كانت تلهث ليس فقط مما بذلته من جهد في التسلق، وإنما ايضاً من التفاعلات التي تعتمل في اعماقها.

وقال بول وهو يراها تلهث بهذا الشكل: «هل تحبين ان تستريحي لحظة؟» حسناً. انه يظن سبب لهاثها هذا هو التعب الجسدي. وربما لو سمع خفقات قلبها العالية، كان أرجع ذلك إلى مرض قلبي... وكادت تنفجر بضحكة هستيرية. وعاد هو يقول: «أو ربما تحبين أن تشربي شيئاً؟»

ومدت يدها تتناول منه بلهفة زجاجة المياه المعدنية التي مد بها يده إليها وقد أحست فجأة، بجفاف شديد في فمها، تبعاً لأحاسيسها الملتهبة. كان لمنظر شعره الأشعث المبلل بالعرق والذي نزل الآن على جبينه، مما اخفى بعض خشونة ملامحه، من الجاذبية بحيث كادت تغص بالماء الذي كانت تشربه، ثم اعادت الزجاجة إلى بول الذي اخذها شاكراً ببساطة وهو يرفعها إلى شفتيه.

وأخذت هي تراقبه وهو يشرب، وقال هو فجأة وهو ينزل الزجاجة: «ان الجو شديد الحرارة فعلاً، لقد كان الظن انه أكثر برودة على القمة هنا، ولكن ليس ثمة نسمة هواء هنا، كما ترين.»

قالت له: «لماذا لا تخلع قميصك؟»

لم تصدق تشارلي نفسها وهي تقول ذلك. واضطرب ذهنها لهذه الكلمات العشوائية التي تلفظت بها. هل تراها فقدت سيطرتها على عقلها لتتصرف بهذا الشكل الذي لم تعهده في نفسها من قبل؟ وإذا كان هذا الشعور نحوه يتملكها الآن، فماذا سيكون أمرها لو أنه خلع قميصه فعلاً؟

وهبط قلبها وهي تتصور ما هو محتمل أن يحدث عند ذاك.

وأجابها هو: «كلا. هكذا أفضل.»

وشعرت تشارلي، في البداية، بالراحة وهي تشعر من هدوء لهجة بول أنه لم يأخذ لكلامها هذا معنى آخر. ولكنها، في اللحظة التالية شعرت بالجفاء يحتل عينيه، ونظراته كذلك، وهو يقول: «هل انت جاهزة لمتابعة السير؟»

استدار مبتعداً عنها وهو يقول ذلك، وانتبهت هي إلى أنه يبذل جهداً في أن يظهر بمظهر طبيعي وهو يتابع قائلاً متعمداً عدم ملاحظة قصدها: «انني متأكد من أن في استطاعتك تصور اميلي برونتي فوق تلك القمة هناك.»

وأدركت تشارلي أنه يريد أن يصرف اهتمامها عن موضوع لا يريدها أن تسترسل في التفكير فيه، ولهذا، حاولت جهدها، أن تجعل جوابها له يبدو طبيعياً وكذلك بقية الحديث الذي دار بينهما وهما يستمران في السير.

ومضت حوالي النصف ساعة قبل ان يصلا إلى قمة ويذينس نفسها، حيث كان منزل «اليزابيت» المتداعي يقف منعزلاً مشرفاً على تلك المراعي، وقد تداعى سقفه في الداخل كما أن بعض جدرانه تساقطت احجاراً متكومة فوق العشب، وقد جلس في داخله بعض الأغنام القوية، وعندما توقفا عن السير، جذبت تشارلي نفساً عميقاً وهي تقول بغبطة: «هذا المكان يعطي فكرة اكثر صحة عن حياتها.»

قال هو مبتسماً: «أهو المكان الملائم الذي في إمكانه أن يغير مجرى الافكار؟» ولكنها أحست أن وراء محاولته اغاظتها، يكمن تفهم عميق لما تعنيه هذه

اللحظة بالنسبة إليها، وذلك من الطريقة التي تركها فيها تجول حيثما تشاء، دون ان يزعجها باية اسئلة أو تعليقات.

كان هذا هو المكان، بالضبط، الذي يمكنها فيه أن تتصور هيثكليف بطل رواية اميلي برونتي وتذكرت تشارلي كيف وقعت في غرام ذلك البطل ذي الأفكار السوداوية التي لا تنقطع، وذلك منذ أول مرة قرأت فيها رواية «مرتفعات ويذيرينغ» عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولم يخف تأثيره عليها رغم اعادة قراءة القصة عدة مرات. وكانت تقيس به كل اصدقاء عهد مراهقتها من الفتيان... وطبعاً، لم يكن ليشبهه واحد منهم... ولاحت على شفتيها ابتسامة خيبة امل وهي تتذكر ذلك.

ربما لم يكن يوجد له شبيه... ذلك أن هيثكليف كان مجرد شخصية خيالية... وهنا، انتقلت انظارها نحو بول وهو يقف بقامته الطويلة ولونه الأسمر بجانب حجارة ذلك المنزل القديم التي غيرها الزمن، لتشعر بقلبها يقفز في جوفها، وقد تملكتها الاثارة، وهو يحدثها بأنها، ربما اقتربت من أن تجد بطلها هيثكليف، ذاك، ممثلاً في شخص بول.

بعد ذلك بمدة قصيرة، جلست وقد تملكها الرضى، على حجر عريض شكل مقعداً طبيعياً، وأخذت تسرح النظر في تلك المراعي وفي الوادي اسفل، عند ذلك فقط، جلس بول بجانبها على العشب، مادّاً ساقيه أمامه ومتكئاً على مرفقه.

وسألها: «اتريدين ان تاكلي الآن؟»

أجابت باسمة: «يسرني ذلك، فانا أكاد أموت جوعاً.»

وشكرته ابتسامتها على صبره وحساسيته التي جعلته

يعطيها الفرصة للاستيعاب والتفكير كما تشاء دون أية مقاطعة من جانبه.

وقال يجيبها: «لا يدهشني هذا والساعة تجاوزت الثانية وقد مضى على تناولنا القهوة والكعك اكثر من ثلاث ساعات.»

وقالت تشارلي ببساطة: «اشعر وكأننا امضينا وقتاً اطول.» وفي الحقيقة، بدا لها الوقت الذي امضياه في قرية هاوورث، وقبل ذلك في بارفورد وكأنه كان في حياة اخرى، وعالم آخر. فهنا، في هذه المراعي، بدا وكأن العداوة بينهما قد تبخرت في شمس الصيف الدافئة، وكأنها لم تكن قط.

وهتفت: «آه، انظر إلى الأغنام، انها أليفة تماماً... ما احلاها!» وصرخت بعد لحظة، عندما فتحت كيس السندويشات لترى انف واحد منها تندس في يدها. وأخذت قطعة صغيرة منها تناولتها بلذة كبيرة.

وقال بول بجفاء وهو يشير إلى بقية القطيع التي رفعت رؤوسها باهتمام: «ما الذي فعلت؟ انظري اليها جميعاً تتجه نحوك.»

وسرعان ما كانت نزهتهما الهادئة قد غزتها مجموعة متراصة من الأجسام الصوفية تتدافع نحوها كل يريد أن يفوز بالطعام.

وصرخت إذ نطحها واحد قوي منها: «هاي... إنها ليست اغنام. هذه...»

وسمعت صوتاً خلفها، فالتفتت لترى بول يحاول جاهداً أن يكبت نوبة قوية من الضحك.

وقالت ساخطة: «هذا ليس مضحكاً. الا ترى كيف تحيط بي؟ آه...».

اندفعت منها هذه الصرخة فجأة بعد ان تلقت نطحة أخرى قوية في فخذها.

فقال وهو يمد يده يوقفها على قدميها يأخذ منها كيس السندويشات: «تعالي.» وألقت هي ببقية السندويش بين مجموعة الاغنام تلهيها بها، ثم ركضت معه نحو المنحدر وثغاء الاغنام تلاحقهما محتجة على انقطاع الطعام.

وزاد في سرعتهما في الركض، حيويتهما المتدفقة وانحدار الطريق، فجعلا يركضان ويركضان عدة دقائق إلى أن تعثرا وتهالكا معا على العشب وهما يلهثان.

عندما استطاعت تشارلي الكلام قالت: «ما أسوأ ما مر بنا.»

فأجابها وصوته يهتز بالضحك: «لقد أحاطت بك القتلة.»

فقالت وهي تدفعه بكوعها: «انك مسرور لهذا. انها لم تهتم بك.»

فقال: «حسناً، انك أنت من أطعمها.» وقلد قولها السابق يغيظها (ما احلاها).»

فأمسكت بذراعه بعنف مازحة وهي تقول: «ايها الوحش كان في امكانك أن تساعدني.»

وزاد في سخطها استمراره في الضحك، فأخذت تضربه بقبضتها على كتفه.

«بت تشبه هيثكليف. كانت الأغنام ستأكلني حية.»

وخمد صوتها وجف حلقها إذ استدار إليها بول فجأة يمسك بمعصميها في يده فيمنعها من الحركة. ووجدت نفسها تحدق في عينيه المتألقتين المتسعتين وهو يقول: «أهذا ما تظنينه بي، يا شارلوت؟ هل أنا هيثكليف؟ وإذا كنت أنا هو، فهل أنت حبيبتي كاثي؟»

كان صوته خشناً منخفضاً بعث الرعدة في اوصالها. وبدا عليها وكأنها فقدت القدرة على الكلام، وفتحت فاها مرتين لتجيبه، ولكن الكلمات كانت تموت بين شفتيها في كل مرة... وازدردت ريقها بصعوبة، وهي تبلل شفتيها الجافتين بلسانها. ورأت نظراته تنصب على حركاتها يستكشف منها مشاعرها، ثم ترتفع مرة اخرى لتغوص في عينيها اللتين شلتا عن الحركة. كانت عيناه الآن قاتمتين تشع منهما قوة مغناطيسية سمرتها في مكانها. ومالبث أن امسك بمعصميها بيد واحدة ثم اخذ يلامس بيده الأخرى وجنتها برهة، رفعها بعدها يتخلل بأصابعه شعرها، لتجد نفسها، بعد لحظة، في احضانه وهو يهمس: «شارلوت.»

انه إذاً يريدها... يريدها هي، تشارلي، وحدها انها ليست بديلة لامرأة اخرى، هذه المرة. إن بول يرغب فيها هي. وهي...

انها تريده... كان هذا الجواب السهل مشوباً بخوف فطري. هل هي تريد هذا حقاً؟ ان تظل معه إلى الأبد؟

كانت كلمة «إلى الأبد» هذه، هي التي جمدتها في موضعها وقد توقف عندها كل احساس وشعور. لكي تكون له إلى الأبد، يجب ان يكون التزاماً دائماً بقية حياتها. انها تريد ان تمضي بقية ايامها مع هذا الرجل، فهي تحب بول بكل عواطفها ومشاعرها، ولكنها لا تريد أن تكون خليلته، بل زوجته.

وهمس هو وقد أحس بالتغير الذي اصابها بين ذراعيه، ففتح عينيه المليئتين بالعاطفة الجياشة يلقي عليها نظرة متفحصة وهو يقول: «ما هذا؟ انني لم اقصد اخافتك.»

أحست بالتعاسة إذ اساء تفسير ردة فعلها هذه، بينما اعتدل هو في جلسته يريح رأسها على صدره، محاولاً ان يكبح جماح عواطفه. ومرة أخرى، أخذ يلامس وجنتها ملاطفاً وهو يقول: «انني آسف...» ولكن تشارلي هزت رأسها بعنف رافضة الاستماع إليه. انها لا تريده ان يشعر بالأسف، لا تريده أن يشعر بأي شيء سوى شيء واحد كانت هي تعلم باستحالته.

كانت تريده أن يحبها كما تحبه... ولكن ذلك لن يحدث ابداً. ان بول لن يتملكه هذا الشعور نحوها أبداً. وكيف يحبها وهي تعلم أنه، رغم ما يظهر منه، أحياناً، من رغبة فيها، في اعماقه، يكنّ لها الاحتقار وعدم الثقة، ولا يرى فيها سوى فتاة تحاول ان تستغل عمته الحبيبة التي احبته وقدمت له المأوى، بالرغم من سنها المتقدمة، وذلك حين مات والداه ورفضته خالته وزوجها؟

وقالت له محولة نظراتها عنه، بصوت منخفض جعل بول يدني رأسه نحوها ليسمعها جيداً: «انك لم تخفني، وإنما فقط...»

انما ماذا؟ الحقيقة هي أن قوة عواطفها أخافتها... لقد افزعتها فكرة انها احبته الآن وإلى آخر حياتها.

وقال بول يستحثها برفق: «فقط ماذا؟» ولكنها لم تستطع إلا أن تهز رأسها غير قادرة على مواجهة تلك العينين الفاحصتين.

تابع هو قائلاً: «مازال الوقت مبكراً لذلك.» كان في صوته، وهو يقول ذلك، من التفهم وتوبيخ النفس ما أحدث في قلبها مثل طعنة السكين، وتابع قائلاً: «انني استعجلت الأمور في انك غير متقبلة ذلك نفسياً.»

وفكرت في أنه لم يستعجل شيئاً، وليس الأمر هو أنها غير متقبلة ذلك نفسياً، ولكنها كانت تريده ان يخبرها أنه يحبها هو أيضاً، وهذا ما لن يحدث أبداً. ولكن، بينما ابتعد بول عنها يسوي من شعره المشعث تصاعد الألم في قلبها متحولاً إلى شعور مؤلم بالفراغ والوحشة، وهتفت بتعاسة وهي تتقدم نحوه مرة أخرة تبغي احضانه، وهي تمتم: «كلا، ليس الوقت مبكراً... أبداً. ارجوك يا بول.»

قال هو برفق إنما بحزم وهو يبعدها عنه بطول ذراعه: «كلا.»

وعادت تهمس وهي تمد ذراعيها نحوه: «أرجوك.» فصرخ: «كلا.»

جمدت هي في مكانها وهي ترفع إليه عينين متسعتين حائرتين لترى تغير ملامح وجهه من الرقة إلى الشدة وبدت في عينيه نظرة عنيفة ثم، وبحركة بسيطة، تخلص من امساكها به، ليميل عنها مبتعداً ثم يقف مشرفاً عليها وقد حجبت كتفاه العريضتان الشمس عنها، وهو يقول بلهجة غير ودية أرسلت في اوصالها قشعريرة لاصلة لها بالظل المنبعث من جسده والذي حجب عنها دفء الشمس، يقول: «ثمة الكثير لا يعرفه الواحد منا عن الآخر. لهذا، مازال الوقت مبكراً يا شارلوت.»

وفكرت تشارلي بتعاسة انه لم ينكر شيئاً عن برايان والخطبة المزعومة... انه ليس في حاجة لذلك لأنهما يعرفان، هي وهو، أن هذا الأمر يقف بينهما حاجزاً منيعاً، فلو لم تتصرف هي بذلك الشكل، فتبتعد عنه، لتعطيه بذلك فرصة التفكير، فربما ماكان ليتنكر هذا إلا بعد حين.

ولكن، قوة ادراكها بحبها له، سلب منها كل تفكير عقلاني

ولم تعد تستطيع التصرف بغير غريزتها، ولكن، رغم ان ذلك كان لبرهة وجيزة لا تتجاوز الثواني، فإنها كانت كافية لكي يتنكر علاقتها تلك بابن خالته، مهما كانت شدة رغبته فيها. وحدثت نفسها بمرارة، إنه، على الأقل، شعر برغبة قوية فيها... ولكن الاحتقار والاشمئزاز اللذين يكنهما نحوها قد قتلا تلك الرغبة أثناء تلك الثواني القليلة التي جددت تلك المشاعر.

وإذا كانت تريد برهاناً آخر لذلك، فها هو ذا يتصرف مثل تصرفه الليلة السابقة عندما تخلص بسهولة من الرغبة المحمومة التي تملكته، ليستقر على العشب مرة أخرى، جاعلاً بينهما مسافة كافية، ثم يتناول كيس الطعام وهو يقول: «صار لزاماً علينا أن ناكل شيئاً، ثم نهم بالعودة إذ ان عليّ ان ازور عمتي اميلي.» وبدا صوته هادئاً متماسكاً بشكل أثار في نفسها الكراهية.

وعاد الآن ذلك الحب العامر منه لعمته ليظهر زيف تباهي برايان بباقات الزهور تلك التي كان يرسلها والتي بدت باهتة بمقارنتها بما يبدو من بول.

كيف سيكون حبه، إذاً، عندما يصادف المرأة التي تسلبه قلبه؟ وأحست بطعنة ألم وحشي وهي تفكر بذلك. إن حبه، عند ذاك، سيكون حب العمر كله، سيكون كحب هيثكليف وكاتي، بطلي قصة اميلي برونتي. ولكن، عندما يلقى المرأة التي تجعله يشعر بهذا، فستصبح كل الأخريات عنده تافهات حقيرات. وقد يبقى عنده شعور الصداقة، فهو من ذلك النوع النادر من الرجال الذين في إمكانهم ان يكونوا اصدقاء مخلصين لعدد من الجنس الآخر، أو ربما يشعرون

بالرغبة فقط. وتلوى قلبها ألماً وهي تتنكر قوة الرغبة التي جمعتهما معاً منذ دقائق فقط. ولكن، كل هذه المشاعر ستكون تافهة زائلة أمام قدرته الهائلة على الحب الأصيل كما تحدثها نفسها، وكانت هي حمقاء حقاً إذ تسلم قلبها لانسان مثله يعتبرها، دون شك، إحدى تلك العلاقات التافهة الزائلة.

ولم تعرف تشارلي كيف مضغت نصيبها من الساندويشات وفي الحقيقة، لقد فتتت قسماً كبيراً منها بين الأعشاب لكي تاكلها الطيور أو ربما الأغنام، فيما بعد، لتكمل بعد ذلك طريقها، غارقة في افكارها المؤلمة، إلى قرية هاوورث. ولكن، لم يبد على بول أنه اهتم بصمتها ذاك، إذ انه لم يعلق عليه، بل بدا عليه الاستغراق في التفكير. كان من الواضح ان عقله في مكان آخر.

استمرت بينهما مسافة تبعدهما عن بعضهما البعض، بشكل ضايقها، طوال الطريق نحو البيت، وخلال زيارتهما للعمة اميلي حيث لم يظهر بينها وبينه حس بالمشاركة رغم انهما كانا يتحدثان معاً إلى السيدة العجوز. لقد كانا يتحدثان عما صادفاه معاً وليس عما اشتركا فيه.

وأخيراً، عند وصولهما إلى المنزل، وجدت تشارلي عذراً بالارهاق والعرق السابح فيه جسمها، لتصعد للاغتسال في الحمام، تختفي، بذلك، عن ناظريه، وبقيت تحت الدوش قدر امكانها، راجية أن تستطيع المياه تخفيف توترها وضيقها ومشاعرها الخائبة بنفس السهولة التي أزالت بها العرق من فوق جسدها. وخرجت أخيراً إلى غرفتها لترتدي سروالاً نظيفاً وقميصاً أزرق باهتاً، ومن

الصوت الذي سمعته في الحمام، أدركت أن بول قد دخل هو أيضاً ليغتسل. وشعرت بشيء من الارتياح وهي تفكر في أنها اراحت اعصابها من الحديث معه، على الأقل، ثم نزلت إلى المطبخ لتحضر لنفسها شراباً ساخناً هي في أشد الحاجة إليه.

وفي المطبخ، كانت مخلفات النزهة، قد أخليت من المكان، لتبقى لفافة واحدة، مازالت في كيس ورقي اسمر، قد وضعت على الطاولة. وتناولتها تشارلي بفضول، لتزداد حيرتها وهي ترى اسمها مكتوباً على الكيس. وسألت الهر تشيكو الذي كان يدور حول قدميها متمسحاً يطلب طعاماً، سألته: «ما هذه؟» لا بد أنها من بول، ولكن ما الذي أراد ان يعطيها إياه؟

وبيدين غير ثابتتين، فكت الخيط الذي يربط الكيس،لتنساب من بين شفتيها صرخة سرور وهي ترى بين يديها نسخة رائعة الجمال لاشعار اميلي برونتي.

ولكن كيف، ومتى اشتراه دون أن تلحظ هي ذلك؟ واغرورقت عيناها بالدمع وهي تتذكر كيف أنه، اثناء رجوعهما إلى قرية هارورث قد دخل إلى كشك هناك يبيع التذكارات عن قمة ويذنغس قائلاً: انه يريد ان يشتري واحداً لعمته، لا بد انه اشترى، عند ذلك، هذا الكتاب. ولمحت تشارلي كلمات مكتوبة في الصفحة الداخلية بعد الغلاف. وكانت عيناها غائمتين بالدموع فمسحتهما لكي تستطيع قراءة تلك الكلمات التي تقول، «إلى شارلوت... أشكرك لمشاركتك لي هذا النهار غير العادي.»

وبعد لحظة، وقبل أن تدرك ما هي بسبيله، قفزت صاعدة

السلم والكتاب في يدها. ودون تفكير، دفعت باب غرفة بول، وقد دفعها سرورها العظيم إلى الدخول دون انتظار الإذن بالدخول، وهي تهتف: «اشكرك يا بول... اشكرك كثيراً لهذه الهدية الرائعة... انني...»

وماتت الكلمات على شفتيها، ورفعت يدها إلى فمها وقد هرب الدم من وجهها عندما استدار بول يواجهها.

كان واضحاً أنه قد خرج لتوه من الحمام وكان شعره مازال مبللاً وملتصقاً بجمجمته البديعة التكوين. وكان قد ارتدى سروال جينز لا غير، وكان على صدره العاري، والذي تركزت عليه انظار تشارلي بذهول، وقد اتسعت عيناها العسليتان برعب، أثار جراح حديثة حمراء من الجلي انها شفيت حديثاً جداً. وكانت تشوّه منظر صدره البرونزي الجميل.

همست بصوت مرتجف: «بول... ما هذا؟»

أجاب يطمئنها بسرعة: «لا بأس بذلك. إنه يبدو الآن اسوأ من الشعور به.»

فقالت: «ولكن، كيف حدث ذلك؟ ومتى؟»

قال بايجاز: «في غواتيمالا. في تحطم طائرة مروحية. لقد كنت في طريقي إلى إحدى القرى النائية، عندما صادفتنا عاصفة رهيبة.» والتوى فمه بمرارة وهو يتابع. «لقد كنت أحد المحظوظين الذين نجوا. لقد مات الطيار، وحدث...»

ولم تشأ تشارلي أن تسمع البقية بعد أن وجدت جواب جزء من سؤالها، وتذكرت غضبها وكيف احتقرته وازدرته لعدم اجابته على رسائلها، ولعدم اسراعه إلى جانب سرير عمته المريضة كما فعل برايان، وذلك لعدم اهتمامه، كما

ظنت هي، وسألته وقد غمرها شعور بالعار والحرج: «هل كان ذلك حوالي الوقت الذي سقطت فيه الآنسة ماكنزي صريعة المرض؟»

أومأ بول برأسه ببطء وقد تعلقت عيناه الرماديتان بعينيها العسليتين المنزعجتين.

وقال: «لقد سقطت بنا الطائرة في مكاناً مما أخذ العثور علينا وقتاً طويلاً كنت اثناءه مريضاً جداً.»

وسرت في بدنها رجفة وهي تفكر في ما يكمن خلف هذا الكلام الموجز عن حالته في تلك الاثناء.»

وتابع قائلاً: «لم ادرك أين أنا لمدة عدة اسابيع، ثم بعد ذلك، مضى بعض الوقت حتى استطعت القيام بأي شيء. وكان المصور الذي كنت معه، وأشاركه نفس الشقة، قد اصيب معنا في نفس الطائرة، وهكذا لم يذهب أحد إلى شقتنا تلك لاحضار البريد لنا إلى ان خرج هو من المستشفى فأحضر لي الرسائل. وما أن قرأتها، حتى خرجت من المستشفى على مسؤوليتي الخاصة، ثم جئت بالطائرة.»

لقد جاء مباشرة من المستشفى دون أية نقاهة، وهي لامته لأنه لم يحضر قبل ذلك. وعضت على شفتها بأسى عميق، وهي تعود بذهنها إلى الاسابيع الماضية، فتتذكر الظلال تحت عينيه، وتلك الليالي التي كان يأوي فيها إلى فراشه مبكراً، كم كان يبدو متعباً.

همست قائلة: «انني آسفة.»

أجاب: «ولكنك لم تكوني تعلمين.»

ولكنها لم تفكر في السؤال. لقد استرسلت في الغضب الأعمى دون تفكير... لم تفكر سوى في اظهار ازدرائها

نحوه وتعبيره بأفضلية برايان عليه وقد اعماها اهتمام ابن خالته الاستعراضي... كما ابتدأت ترى برايان الآن. انها لم تحاول أن تبحث في امر برايان كما يجب لتعلم السبب في عدم قدومه لرؤية عمته.

وقالت متسرعة: «بول... بالنسبة إلى برايان...» وعرفت من تجهم وجهه وتلك النظرة الجافة في عينيه انه ما كان لها أن تأتي على ذكر ابن خالته.

وردد هو كلمتها: «برايان؟» وحملت هي نفسها على متابعة كلامها قائلة: بالنسبة إلى وصية عمتك، عن المنزل النهري، يجب ان تصدقني.. انني لم أكن اعلم.»

فقال: «اعرف ذلك.» كان هذا آخر شيء تتوقعه، وبقيت لحظة تحدق فيه مشوشة الذهن، وتابع هو: «لقد رأيتك مع عمتي اميلي، وكان واضحاً لمن له عينان انك شديدة الاهتمام بها... وكذلك بالنسبة إلى الهررة... والأزهار... والطريقة التي تعتنين بها بالبيت. وهذه الليلة، اثناء وجودك في غرفة الانتظار، اخبرتني بقصة لقائها بك لأول مرة، كاملة، وكيف انها هي التي طلبت منك العمل عندها لأنها كانت في حاجة إلى مرافقة. ولكنك رفضت أخذ راتب على عمل كنت تريدين أن تقومي به لأجلها مجاناً، ومن هنا، لم أعد في حاجة إلى أن تخبريني شيئاً آخر عنك.»

هز رأسه ببطء وقد بان في نظراته نوع من الأسف وكأنه يلوم نفسه وهو يتابع: «ولقد اخطأت أنا في تقييم الوضع بشكل هائل.» وابتسم وقد بدا عليه الخجل والاشمئزاز من نفسه وهو يتابع: «انني لا أحسن عادة كتابة الرسائل، ولكن العمة اميلي هي أسوأ مني في هذا، إذ انها أخبرتني فقط

بنصف، بل بربع القصة. كنت هناك في غواتيمالا على بعد آلاف الأميال، وبدا وكأن هناك من تدبرت اجتماعاً مع عمتي لتدخل حياتها لمجرد أن تبتز منها ما تستطيع من نقود.»

وفكرت تشارلي في أن هذا ما بدا من الأمر في الحقيقة. ألم تجادل هي نفسها الآنسة اميلي بنفس الشيء، عندما قدمت لها هذه وظيفتها تلك، قائلة لها ان الناس سيظنون بها الظنون؟ فلماذا تلوم بول، إذاً، إذا هو ظن نفس ما حسبت هي حسابه وفجأة، اهتزت وهي تفكر في أن هذا ما قد يكون فكر فيه برايان هو أيضاً. أليس من المحتمل أنه، حين فكر في أن يلجأ إليها لخداع عمته، شجعه لطلب معونتها في ذلك معتقداً أنها هي أيضاً تستعمل مثل هذا الخداع للتحايل على عمته لأسباب مادية. وشعرت، وهي تفكر في هذا، بالغثيان.

وتابع هو: «لقد كنت قادماً إلى هنا على أية حال، لأرى ما يحدث وأقيم الوضع عندما وقع لي حادث الطائرة تلك. وعندما رجعت، وجدت مكانك المتين في نفس عمتي لا يحتاج إلى ايضاح، هذا إلى اخذك راتباً كبيراً من عمتي دون أن تقومي بعمل يستحقه، ثم فوق هذا، تتهمينني بإهمال...»

وقاطعته: «ولماذا لم تخبرني عن حادث الطائرة، وعن اصابتك؟»

رغم أن تشارلي وجهت إليه هذا السؤال، فقد كانت تعرف الجواب وهو أن بول، لإيمانه العميق بأنها فتاة مادية قاسية القلب، لم يشأ أن يطلعها على موطن ضعف فيه في الوقت الذي أراد ان يظهر فيه بمظهر القوة. والتقت عيناه

الباردتان بعينيها برهة، ثم قال: «اكثر ما اخبرتني به، كان صحيحاً. فأنا لم اكن هنا عندما كانت عمتي فعلاً في حاجة إلي. لقد جئت متأخراً، أشهراً عديدة ثم عرفت بأمر الخطبة المزعومة، تلك.»

ورأت تشارلي في عينيه نظرة غاضبة هي انعكاس لما كان قد شعر به في ذلك الحين، مما أحدث رعشة في اوصالها رغم علمها بأنها لم تعد مثاراً لغضبه.

ووجهت إليه سؤالاً لم تكن متأكدة من جوابه، قالت: «بول. هل كسرت حقاً أنف ابن خالتك؟»

لم تكن في حاجة إلى ان يومىء برأسه ايجاباً، فقد قرأت الجواب في ملامحه. فسألته: «لماذا؟»

ورأت من ملامحه أن هذا السؤال لم يفكر والدا برايان نفسهما بإلقائه عليه. وأجاب: «إن برايان، كما تعلمين، يكبرني بثلاث سنوات، وفي السابعة عشرة من عمره كان قد ابتدأ يهتم بالعمل الذي يقوم به الآن من شراء التحف وبيعها. كان قد ابتدأ يحصل على البضاعة بطريقته الخاصة. فيذهب إلى منازل كبار السن طالباً شراء ما عندهم من مقتنيات قديمة عديمة القيمة. وطبعاً كانت هناك دائماً اشياء قديمة لا يعرفون قيمتها.»

قاطعته: «مثل لوحة السيد (هادج)!»

فأومأ برأسه متجهماً وهو يقول: «تماماً، مثل لوحة السيد (هادج). لقد وجدت في ذلك الحين، أنه احتال على سيدة مسنة ليسلبها شيئاً ثميناً، وهنا... فقدت اعصابي.»

وهكذا فقد اعصابه في المنزل الذي يأويه، إذ ان خالته وزوجها رفضا أن يسمحا له بالعيش معهما بعد ذلك، لهذا السبب.

وسألته: «ولكن الآنسة اميلي، طبعاً، فهمت السبب.»

فأجاب: «أظنها ارتابت في ما يقصد. فقد كانت أحد الناس الذين لم يؤخذوا بنعومة ابن خالتي العزيز الساحرة.»

فقالت بندم: «كما كنت أنا.» وفكرت لحظة، في السهولة التي خدعت بها، بتصرفات برايان الحسنة. فلا عجب إذاً، وهو يعلم من هو ابن خالته، في ان يتهمها، وهو يراها تدافع عنه بكل تلك الحماسة، يتهمها بأنها شريكته في خطته التي كان يريد بها ان يجعل عمته تترك له البيت لكي ينشىء فيه اسرة، وذلك في الوقت الذي كان هو يفاوض على بيعه إلى مجموعة التنقيب تلك.

وبدت على شفتي بول ابتسامة ملتوية وهو يقول: «انك لست الأولى التي خدعت به، ولن تكوني الأخيرة. وإذا كان ثمة ما يبعث على التعزية، فهو انني استعدت منه تلك اللوحة للسيد هادج العجوز.» وانعكست ابتسامة تشارلي المسرورة في عينيه، ولكنه لم يلبث ان عاد إلى تجهمه وهو يتابع قوله: «ان ما يؤسفني هو اعتقادي انك كنت مشتركة معه، كان يجب ان أكون أكثر حذقاً بالنسبة إلى برايان... وأيضاً اكثر ايماناً بعمتي إذ لا يمكن لها أن تخدع بفتاة محتالة كما بدت.»

كان غضبه الآن قد تلاشى تماماً من وجهه. وشجعها هذا لأن تتقدم منه برغبة لا تقهر، بعد ان القت بكتاب الشعر الذي في يدها، على كرسي بجانبها ثم مدت يدها تلامس، بكل رقة، الآثار الحمراء للجروح على صدره، وعندما سمعت لهاثه المكتوم من بين اسنانه، وهي تفعل ذلك، سألته باهتمام: «هل تتألم؟»

أجاب: «كلا.»

كان صوته خشناً غير منتظم، صدقيني. انني في حاجة فقط، إلى بعض الوقت، لكي اعود إلى سابق قوتي، انني اتعب احياناً بسهولة، وهذا كل شيء.»

ومرة أخرى، تذكرت تشارلي تلك الليالي التي كان يذهب فيها باكراً إلى الفراش. كان واضحاً ان ثمة شيئاً غير طبيعي. لماذا لم تلاحظ ذلك؟ كان يجب أن تدرك أن رجلاً مثل بول لم يكن ليتأخر عن القدوم إلى عمته المريضة دون سبب وجيه. ولكنها، في ذلك الوقت، لم تشأ أن تصدق أن فعله ذاك قد يكون له ما يبرره. لقد كرهته يومذاك... ولكن شعورها الآن اصبح مختلفاً جداً. وقطبت حاجبيها وهي تعود فتمرّر أصابعها على صدره وهي تعض على شفتها لدى احساسها بنتوء آثار التئام الجراح، والتفكير في تلك الاسابيع التي امضاها في المستشفى.

وقال لها بخشونة بصوت نبّه احاسيسها: «تشارلي لا أظن انك ينبغي أن تفعلي ذلك.»

فقالت: «ولكنك قلت ان هذا لا يؤلمك.»

قال: «انه لا يؤلمني، ولكن...»

التقت أعينهما لترى في عينيه نظرة غريبة. وانتابها احساس بأنوثتها جعل الدم يسري حاراً في عروقها وبقيت تلامس صدره وقد بدت على شفتيها ابتسامة تغيظه بها.

وقال هو: «إذا أنت لم تتوقفي عن هذا العمل، فإنك تعرفين ما الذي سيحدث.»

قالت: «كلا لا اعرف...» ونظرت إليه وقد اتسعت عيناها متصنعة البراءة، وهي تتابع مبتسمة بخبث: «لماذا لا تريني

ماذا سيحدث؟ ونظر هو إليها برهة مذهولاً، ثم ما لبث أن مد ذراعيه إليها يجذبها إلى احضانه، وهو يقول:

«هذا ما أنذرتك أنه سيحدث.»

وابتسمت هي وقد تدفقت المشاعر من نظراتها وهي تقول: «وهذا ما رجوت أنا أن يحدث.»

الفصل الحادي عشر

تجاوب رنين الهاتف في مسامع تشارلي وكأنه آت من مكان سحيق، كانت أذناها وكأنما حشيتا بالقطن فهي لا تكاد تسمع، وتقلبت في فراشها وهي تتأفف دافنة وجهها في وسادتها، واستمر رنين الهاتف ملحاحاً ليعلو معه تأففها.

وجاءها صوت من مكان ما يقول: «سأجيب أنا عليه.»

وفيما كانت تحاول استجماع افكارها، سمعت وقع اقدام بول ينزل السلم إلى القاعة حيث الهاتف. وتناهى إليها صوت السماعة ترفع من مكانها، ثم صوته وهو يجيب: «آلو. من؟ رون؟ مرحبا.»

كان رون اسم رئيسه في الصحيفة، كما تذكرت تشارلي، وتمطت تحت الأغطية.

تحركت رافعة رأسها قليلاً تستمع إلى ما يقوله بول: «طبعاً ساكون هناك. انني لا أريد ان يفوتني هذا... عليَّ فقط أن اسوي بعض الأمور البسيطة هنا.»

وأرهق تشارلي بذل هذا الجهد للاستماع، ولم تستطع المتابعة، وسرعان ما عادت تحلم بأحداث الليلة الماضية. «شارلوت...» وايقظها من أحلامها صوت بول الرقيق بهمس باسمها في أذنها.

وحاولت هي أن تفتح عينيها عبثاً، وأخذت تهمهم، وسمعت ضحكته الدافئة، من محاولاتها هذه، ثم قال: «لا تهتمي، يا حبيبتي، اسمعيني لحظة

فقط، ثم عودي إلى النوم، عليّ ان اخرج الآن... هذا ضروري.»

كان تأكيده هذا وهو يراها تعبس وهي مغمضة عينيها، ثم تهمهم محتجة.

لم تكن تريده أن يذهب إلى أي مكان. كانت تريده ان يبقى بقربها.

وتحركت، ومازالت عيناها مغمضتين، تمسك بيده تمنعه من الخروج.

وعاد هو يضحك منها قائلاً: «لا بد لي أن اذهب. ان عندي مقابلة.»

وفتح اصابعها المنقبضة على رسغه، برفق، حتى تحرر منها. ثم قبلها على شعرها وهو يتحول نحو الباب.

وفجأة، شعرت تشارلي بالخوف يسيطر عليها، ليجعلها في أتم يقظة، وفتحت عينيها لتلمح ظهر بول متوارياً وهو يغلق الباب خلفه. ولكن هذا كان كافياً لكي تشعر بطعنة في قلبها وهي تراه مرتدياً تلك البذلة الرمادية الأنيقة التي كان يرتديها عندما خرجت معه إلى العشاء في مطعم تشالمورث هاوس.

هنالك شيء ما... وشعرت بكلابات مؤلمة تعتصر فؤادها. وقفزت من السرير دون تفكير. وسمعت الباب الخارجي يصفق. وهرعت إلى السلم تهبطه راكضة إلى الباب في الوقت الذي كانت فيه سيارة بول تتوارى في الشارع.

وعادت تشارلي إلى المطبخ، ووضعت ابريق الشاي على النار، ثم جلست تحاول لملمة افكارها المشتتة، في محاولة لفهم السبب في هذا الحدس الذي انتابها، وجعلها تقتنع بأن شيئاً مفزعاً قد حدث.

ان ذلك لا يعود لشيء فعله بول، ليس بالنسبة إليها، على

الأقل. وحملت فنجان القهوة عائدة إلى غرفتها، حيث دخلت الحمام، وتحت الماء تصلب جسدها وهي تفكر في أن الأمر هو ما سمعته في تلك المحادثة الهاتفية من كلمات متفرقة في اثناء نومها المتقطع. (طبعاً ساكون هناك... انني لا أريد ان يفوتني هذا... عليّ فقط أن اسويّ بعض الأمور البسيطة هنا...) كان يتكلم إلى رئيسه رون، ثم، بعد أن جاء يودعها بقبلة على رأسها، قال شيئاً عن مقابلة ما.

وهزت الصدمة فؤادها. ووقفت دون حراك، غير شاعرة بتدفق الماء على جسدها وقد امتزج في نفسها الألم بالحقيقة المرة لتكوّن، لما حدث، صورة جعلت نفسها تتلوى ألماً. لقد تلقى بول مخابرة هاتفية من رئيسه في العمل الذي، كما يبدو من ردة الفعل عند بول، قد عرض عليه مشروعاً جديداً لا بد انه عظيم الأهمية مما جعل بول، كما هو معروف عنه، لا يتردد في القبول، كما بدا من جوابه ذاك في الهاتف. (لا أريد ان يفوتني ذلك.) إلى أين سيذهب هذه المرة؟ هل إلى غواتيمالا مرة أخرى؟ أم إلى بلاد أخرى في أميريكا الجنوبية؟ أو ربما سيسافر إلى طرف آخر من العالم؟

وخرجت من الحمام حيث أخذت تجفف جسدها بشكل آلي عنيف دون وعي منها، لقد كانت تعلم على الدوام، أن بول ليس ذلك الرجل الذي يستقر في مكان واحد. فهو في ذلك، مثل أبيه، وهي لم تتوقع منه قط أن يمكث في بارفورد كل هذا الوقت الذي امضاه فعلاً. كانت تعلم أنه سيتابع طريقه في أقرب وقت، سعياً وراء قصة جديدة للصحافة.

ولكن ذلك كان قبل أن تقع في غرامه، وهذا الذي أصبح يعني لها كل شيء، والذي اصبح كل العالم بالنسبة إليها، ألا

يعني له هو، شيئاً؟ وكانت ترتدي الجينز وفوقه قميص مشجر مقفول، عندما عادت إلى ذهنها بقية مقولة بول في الهاتف (عليَّ فقط ان اسوي بعض الأمور البسيطة هنا.)

وغامت عيناها العسليتان، واثقلهما الألم وهي تشعر بطعنة نجلاء في فؤادها، (اسوي بعض الأمور؟) انه يريد ان ينظم الأمور قبل ان يذهب في طريقه، وربما لن يلقي عليها نظرة اخرى.

وتصاعدت دقات ساعة الحائط من القاعة لتعلم منها، ذاهلة، أن النهار قد انتصف. لقد نامت اكثر كثيراً مما كانت تظن. ولكن، ماذا يهمها الوقت؟ ان امامها بقية النهار قاحلة موحشة قد خلت من كل معنى للحياة. وكان التفكير في رؤية بول مرة اخرى هذا المساء والذي اعتاد ان يجعل قلبها يخفق سروراً، متمنية لو تمضي الساعات سراعاً، هذا التفكير جعلها الآن توشك على البكاء بصوت عال. وهي تفكر في الطريقة التي تبدو امامه قوية شجاعة لتدعي انها، مثله هو، ترى في ما حدث الليلة الماضية، مجرد متعة زالت وانتهت دون ان تترك خلفها أي شعور.

كانت دقات الساعة تذكرها كذلك، بوعدها لمخدومتها بأن تزورها هذا النهار، ولكنها لم تستطع التفكير في أنها ستواجه بول هناك مرة اخرى، ربما الأفضل ان تذهب مبكراً حيث يكون بول مازال في المقابلة التي تحدث عنها، لقد صممت على القيام بشيء، شيء كان يجب ان تقوم به قبل الآن بوقت طويل.

وهتفت الآنسة اميلي حال رؤيتها لتشارلي تدخل عليها: «تشارلي. ان عندي خبراً رائعاً، انهم

سيسمحون لي بالخروج من المستشفى في الأسبوع القادم.»

هتفت تشارلي بدورها: «احقاً؟ ما أجمل هذا.»

كانت استجابة تشارلي لهذا الخبر من كل قلبها، ولكن، لتجفل بعد لحظة وهي تتذكر ما سبق وصممت على القيام به. فإن للآنسة اميلي الحق في ان تعرف الحقيقة، وليذهب برايان إلى جهنم. انها تعرف الآن أن تأجيله مكاشفة عمته بالحقيقة، وتظاهره بانه يخاف عليها من نكسة إذا هو اخبرها، تعرف ان ذلك ليس إلا حجة يريد من ورائها إطالة امد الخطبة المزعومة قدر الاستطاعة بأمل ان تعيد عمته كتابة الوصية في صالحه.

وسألتها تشارلي: «أمازلت تريدينني ان اشتغل عندك عندما تعودين إلى البيت؟»

فأجابت الآنسة ماكنزي: «طبعاً أريد ذلك يا عزيزتي، فانت تعرفين كم تسرني صحبتك.»

وتساءلت تشارلي عما إذا كانت السيدة العجوز ستبقى على شعورها هذا عندما تعلم الحقيقة. وقالت: «يا آنسة اميلي، عندي شيء أحب ان اطلعك عليه.»

وقالت مخدومتها: «لماذا يبدو عليك القلق، يا شارلوت؟ هل ذلك بسبب تلك الخطبة الحمقاء؟»

وشعرت تشارلي بالارتياح وهي تسألها: «هل اخبرك برايان بالأمر؟»

فأجابت: «كلا، إنه لم يفعل، لأن هذا لا يناسب خطته ابداً. ولكن هل ظننت حقاً أنني لن ارتاب في الأمر؟ كنت في البداية، غير صافية الذهن، ولم أكن لأستوعب شيئاً، ولكن

اخيراً، عندما ابتدأت أفكر في الأمر، ادركت ما الذي كان يجري ثم انكما لم يظهر عليكما ابداً مظهر المخطوبين.»

ولم تستطع تشارلي ان تصدق هذه الطريقة الهادئة التي تقبلت الآنسة ماكنزي بها الأشياء.

وقالت: «انك إذن غير مستاءة مني؟ اعني... انني فعلت ذلك.»

فقاطعتها: «انني اعرف لماذا فعلت ذلك. لقد ظننت أن هذا يسعدني، إذ لا يمكن أبداً ان تكوني فعلت هذا لأي سبب آخر. وبالنسبة إلى برايان، فصرت اعرف طريقة تفكيره، انني متأكدة من أنه قد سبق وتعاقد مع مشترٍ للمنزل النهري. فهو لم يرغب قط في العيش فيه.»

وعندما رأت الحقيقة في وجه تشارلي، أومأت برأسها بحزن وهي تتابع: «ربما كان اكثر هذا نتيجة خطأ مني أنا. ما كان يجب أبداً ان اقول إن المنزل هو لمن يتزوج أولاً. لم يكن ذلك وضعاً صحيحاً أبداً، ولم يكن لي الحق في فعل شيء كهذا، فهذان الشابان يكره الواحد منهما الآخر منذ اليوم الذي التقيا فيه، وجئت أنا لأقدم إليهما شيئاً آخر يتقاتلان من أجله.»

فقالت تشارلي: «أظنني اعلم السبب.»

فتنهدت السيدة العجوز قائلة: «حسناً، يجب أن يكون المنزل النهري منزلاً لأسرة، لقد أردت ان اراه مليئاً بالأولاد مرة أخرى.» وشبكت يديها الواحدة بالأخرى، وقالت وقد تألق وجهها: «ولكنني حسمت الأمر. لقد قررت أن أبيعه.»

لم تصدق تشارلي اذنيها، وهتفت: «ماذا؟ اتبيعين المنزل النهري؟ ولكنه بيتك الذي تعيشين فيه!»

فبدا على الآنسة ماكنزي نفاد الصبر وهي تقول: «ولكنه

كبير بالنسبة لسيدة عجوز، يا عزيزتي، ينبغي ان تعلمي أنت ذلك قبل الجميع.»

فقالت تشارلي: «ولكن... ولكن ما هو رأي بول في هذا؟»

ماذا سيقول بول إذا هو رأى عمته تبيع المنزل النهري؟ المكان الوحيد الذي يعتبره بيته؟ ولم تستطع تشارلي ان تتصور ردة فعله لهذا. وعلى المستوى الشخصي، فكرت تشارلي في أن بول، إذا بيع المنزل، فلن يعود هناك سبب يعيده إلى بارفورد في المستقبل.

وصعقت تشارلي عندما أجابتها الآنسة ماكنزي: «إنه موافق تماماً، ثم أنه هو الذي اقترح بيع المنزل.»

وهنا، شعرت تشارلي برأسها يكاد ينفجر من جراء هذه الصدمات التي تتلقاها. وهتفت بذعر: «بول... هل اقترح بول أن تبيعي المنزل؟»

وأومأت الآنسة اميلي برأسها وعلى وجهها ابتسامة اعتداد بالنفس.

فعادت تشارلي تقول: «ولكن، كيف أمكنه ذلك؟»

فأجابت: «ولماذا لا تسأليه هو هذا السؤال؟ انني متأكدة من انه سيشرح لك أسباب ذلك، وبعد، فأنت لم تعودي مخطوبة لبرايان لكي تهتمي بالمنزل، أليس كذلك؟»

وانتبهت تشارلي إلى التغير الذي بدا في صوت مخدومتها، وإلى نظرة ذات معنى في عينيها الصغيرتين اللامعتين. هل من الممكن ان يكون هدف السيدة العجوز من وراء ذلك، هو أن توقف التنافس المخيف على المنزل بين ابني الخالة؟

وقالت بكآبة: «ان بول لن يخبرني بشيء.» ولماذا

يشرح لها الأمر في حين انها لا تعني له شيئاً؟ ثم أليس في اقتراحه لعمته بأن تبيع المنزل، برهان واضح في انه لا ينوي العيش في هذه المنطقة؟ أو حتى العودة يوماً ما، في المستقبل؟

وسألتها الآنسة ماكنزي بحدة ادهشتها: «وهل سألته؟ هل سبق وسألته مرة عن خططه بالنسبة للمستقبل؟»

أجابت: «لا أظنه كان سيخبرني، فإن الصلة بيننا ليست قوية إلى هذا الحد.»

كانت تجاهد لكي تبقي لهجتها هادئة طبيعية. ولكن، على كل حال، كان ما قالته صحيحاً تماماً، فإن الصلة بينها وبين بول لم تكن قوية وبسرعة اخذت تشارلي تتصنع السعال لتغيير مجرى افكارها هذه، وتقبلت، شاكرة، كوباً من الماء من مخدومتها لتكسب من الوقت ما تستعيد به صفاء ذهنها مما يمكنها من ان تدير الموضوع إلى النواحي العادية إلى أن يحين موعد خروجها.

وعندما عادت تشارلي إلى البيت، كان أول ما لمحته هي سيارة بول أمام البيت. وانقبض قلبها حالاً لذلك. لقد حانت اللحظة التي كانت تتوقعها بخوف، طيلة النهار، ولم يعد لها مناص من مواجهتها.

لقد حاولت جهدها، تأخير لحظة المواجهة تلك، وذلك بالذهاب إلى متجر الأغذية لتشتري كل الأشياء غير الضرورية، ثم ذهبت إلى المنزل النهري في الوقت الذي كانت تعرف أنه سيكون فيه في المستشفى، حيث أمضت الساعات تعمل، لتجد في ما بعد، عندما انتبهت إلى نفسها، ان اكثر اوقاتها قد لمضتها ساهمة تحدق في الجدار بعينين

لا تريان شيئاً، ولكن المساء قد حل الآن، وعليها أن تعود إلى منزلها، حتى ولو لأجل تجهيز العشاء، كما يتطلب واجبها كمؤجرة.

وشعرت بقدميها ثقيلتين كالرصاص، وهي تسلك طريق البيت لتدخل المنزل، آملة في أن تتمكن من التسلل خفية إلى المطبخ ومن ثم تبدأ بتجهيز الطعام، إنها بذلك تلهي نفسها على الأقل، ولكن، ما ان دخلت القاعة، حتى ناداها بول الذي كان قد سمع خطواتها.

سائلاً: «أين كنت طيلة النهار؟»

أجابت: «هنا وهناك... وشعرت بالراحة وهي تجد صوتها طبيعياً... فقط كان تنفسها المتسارع قليلاً يشي بالتوتر الذي تعانيه، ربما بإمكانها ان تواجهه بشكل عادي على كل حال، وتذكرت ما اعتادت أمها ان تردد على الدوام، من أنها إذا كان عليها أن تقوم بشيء غير سار، فالأفضل ان تنتهي منه حالاً. فجذبت نفساً عميقاً، ثم اندفعت صاعدة السلم.

كان بول في غرفته، وترنحت تشارلي برهة، ولكنها ما لبثت أن تابعت صعودها، وقد نصبت قامتها، ان عليها أن تواجهه على كل حال. وسألته: «ماذا تريد ان تأكل؟»

ماتت الكلمات على شفتيها وهي تحدق في المشهد البادي امامها. كانت حقيبة ثيابه مفتوحة على السرير تكاد تمتلىء بثيابه. وكانت حقيبة أخرى اصغر قد سبق وملئت، ثم اوقفت بجانب الجدار.

وقالت بصوت مبحوح وقد شعرت بقواها تفارقها فجأة: «ما الذي تفعله؟»

فقال وقد بدت لمحة من التفكهة في عينيه: «وما الذي يبدو لك؟ انني أحزم امتعتي طبعاً.»

لم تكن تتوقع قط أنه سيرحل بهذه السرعة، أو أنه سيكون من القسوة بحيث يسخر منها اثناء ذلك.

سألته: «لماذا؟» ورأت سؤالها هذا سخيفاً... ولم تستطع ان تنطق بغير هذه الكلمة.

أجاب بشيء من نفاد الصبر: «ظننت الأمر واضحاً انني راحل فأنا لن استطيع البقاء بعد، لأن ذلك يجلب الحظ السيىء.»

حظ سيىء؟ وسرت هذه الكلمة في اعماق تشارلي مسببة ألماً مبرحاً في كل خلية من جسدها. (حظ سيىء) وأخذ عقلها يردد هذه الكلمة. ومالبث ان قذفته بها قائلة وقلبها يقطر ألماً: «حظ سيىء؟»

لم يعد يهمها أن تخفي مشاعرها. لقد كان حظها هو السيىء يوم وصل هو إلى بارفورد، حظها السيىء الذي اوقعها في غرامه... ولكن خروجه من حياتها، هاجراً إياها بمثل هذه السرعة، لم يكن له أية علاقة بالحظ.

وتابعت: «كيف تجرؤ على هذا؟ كيف تجرؤ على القول في وجهي (حظ سيىء...) كان يمكن أن يدوم هذا مدة اطول، لولا أن شيئاً أفضل قد حدث ليس هذا حظاً سيئاً بل هي انانية مجرمة منك... فلماذا لا تعترف بالحقيقة، وهي أن ما حدث لم يعن لك شيئاً ابداً وان كل ما يهمك هو الرحيل بأسرع وقت ممكن؟»

وصرخ بها: «ما الذي تتحدثين عنه؟» وادهشها ان تراه ينظر إليها باضطراب وعدم فهم، وليس كما توقعته من الغضب واللامبالاة... وعاد يهتف بها. «تشارلي...» ولكن

اسمها المختصر هذا الذي تلفظ به، والذي سمعته منه لأول مرة ليلة أمس اثناء المشاعر المحمومة التي اظهرها نحوها، اسمها هذا ينطلق من بين شفتيه، كان أكثر مما تستطيع احتماله، فصرخت به: «لا تلفظ اسمي بهذا الشكل، ليس لك الحق بذلك.»

فقال: «اظنك اعطيتني الحق في...»

قاطعته: «أبداً، ما حدث بيننا ليلة أمس لا يعني شيئاً، هل تسمع؟ لا شيء على الاطلاق.» وكان صوتها قد أصبح عالياً ينم عن أشياء كثيرة، ولكنها لم تهتم.

قال: «حسناً.»

وشقت هذه الكلمة الباردة القاسية، الجو كحد الحسام لتطعن قلب تشارلي. وفكرت، وقد تملكتها التعاسة، انه كان عليها أن تتوقع هذا بعد أن رأت، اثناء وجودهما في تلك المراعي، وقبل ذلك في موقف السيارات عند مطعم شالمورث هاوس بعد أن رأت كيف استطاع ان يتخلص من كل مشاعره، كما يفعل الآن.

وقال: «في هذه الحالة، ربما في إمكانك أن تشرحي لي من فضلك السبب الذي احدث هذا التغير في قلبك.» التغير في قلبها؟ وغمرت الكآبة نفس تشارلي. انها لم تعد تشعر بأن لها قلباً لكي يتغير... ويبدو أنه مات في نفس اللحظة التي اعلن هو بها أنه سيرحل.

وقال بول وهو يتخلل شعره بيده: «ليلة أمس... تشارلي... شارلوت...» وأخذ يغير من لفظ اسمها بتمهل، وهو يتابع: «ما الذي تظنين كنا نفعل ليلة أمس؟»

وهتفت به، في نفسها، كنت بين ذراعيك... وكان

واضحاً أنك إنما كنت ترضي شهوتك فقط، كان الألم الذي كانت تشعر به، والجهد الذي كانت تبذله لكي لا تدعه يشعر بذلك، كل ذلك جعلها ترفع رأسها بتحد، وتجيب بصوت عالٍ حوى كل ما أمكنها تكلفه من البرود والتعالي: «لقد اخبرتك ان لا شيء من هذا عنى لي شيئاً. اننا... انك...» واهتزت الكلمات على شفتيها عندما التقت عيناها بعينيه ورأت ما ارتسم فيهما من تعبير.

لقد بدا في عينيه من الألم والشعور بالمهانة، ما جعلها تترنح شاعرة بأن ساقيها لم تعودا تقويان على حملها. ولكن، كلا... لا يمكن أن يشعر بول بأي ألم. أليس هو الذي يحزم امتعته الآن لكي يرحل دون أي اهتمام بشعورها؟

وفجأة، وجدت نفسها تقول مرددة كلمات سبق أن سمعتها منه في تلك المحادثة الهاتفية: «عليّ فقط ان اسوي بعض الأمور البسيطة هنا...» قالتها بصوت عالٍ تسوده المرارة.

فنظر إليها لتلحظ في عينيه ذلك الاضطراب قد ازداد عمقاً، بينما كان يقول: «نعم... لقد اخبرتك...»

فقاطعته وهي تقذف الكلمات في وجهه بعد أن لم تعد تستطيع التحمل: «انني انا إذاً. بعض الأمور البسيطة التي يجب ان تسوى قبل أن تتابع حياتك.»

قال: «ولكن هذا ليس ما كنت أعنيه!»

قالت: «كلا؟ لماذا تحزم امتعتك إذاً؟ لماذا تبدو عليك مثل هذه السرعة للعودة إلى لندن؟ انك لم تستطع حتى ان تنتظر إلى...»

صرخ فيها مقاطعاً بحدة اخرستها: «كفى... من هو الذي تحدث عن لندن؟»

إذاً، فقد كان ظنها صحيحاً... إذ أنه لم يكن ينوي حتى مجرد البقاء في انكلترا، لقد قرر السفر إلى الخارج مباشرة.

وقالت: «حسناً، أظنك ستذهب إلى مكتب الصحيفة؟»

أجاب ببطء وحذر غريبين، وكأنما يخشى أن يوقع نفسه كما بدا لها: «نعم... ثم بعد ذلك.»

فقاطعته: «ثم بعد ذلك، تنطلق إلى أي بلد أجنبي اخترته هذه المرة، لكي تشرّفه بوجودك فيه.»

لأول مرة، يرفع بول صوته فيها قائلاً: «كلا.»

فقالت: «كلا؟»

فأجاب: «انني غير مسافر إلى الخارج... حتى إلى لندن في ما عدا بعض الزيارات المختصرة.»

وجالت انظار تشارلي في أنحاء الحجرة، محدقة في الحقيبتين اللتين كانتا البرهان على رحيله، وهي تقول: «ولكنك قلت انك راحل؟» ولم تستطع ان تتمالك نفسها من أن يحتوي صوتها شيئاً من الأمل وهي تقول ذلك.

وأجاب هو: «نعم، انني سأنتقل من هنا إلى المنزل النهري. ان عمتي ستخرج من المستشفى في الأسبوع القادم. وأنا أريد أن...»

قاطعته: «أعلم ذلك، ولكنها لن... هل قلت انك ستنتقل إلى المنزل النهري؟»

تمتم هو مجيباً وهو يومىء برأسه: «لقد ابتدأت، على الأقل تستمعين إليّ.»

قالت: «ولكن الآنسة اميلي ستبيع البيت؟»

قال: «اعرف ذلك...» وهذه المرة، رفع يديه الاثنتين يدسهما بشعره بخشونة وهو يقول: «حديثنا هذا كله غير مفهوم، اتمانعين في أن نبدأ من جديد؟» وفتحت هي فمها لتعلن ان كل هذا الحديث كان واضحاً تماماً لها... فقد تصرف بغير مراعاة لشعورها، ثم ها هو ذا راحل الآن... ولكن شيئاً في وجه بول منعها من ذلك ولم تستطع سوى ان تشير إليه بصمت أن يستمر في الكلام.

وقال: «اولاً، انني راحل من هنا، ولكن إلى المنزل النهري فقط، ثم نعم...» ورفع يده يسكت تشارلي بعد ان رآها تهم بالكلام، وهو يتابع: «انني اعلم ان عمتي اميلي ستبيع المنزل... فأنا من سيشتريه منها.»

وهتفت: «انت الذي...؟» ولم تستطع اكمال سؤالها.

قال: «انها لم تخبرك بذلك، أم تراها فعلت؟»

لم تصدق وهي ترى الضحك يمتزج بصوته وهو يتابع: «أظن أن من الأفضل ان نبدأ من البداية... إذ يبدو أننا لم نعد نعرف كيف نتفاهم.» وجذب نفساً عميقاً، ثم تابع قوله: «ذهبت إلى المستشفى هذا الصباح بعد أن تركتك مباشرة إذ ان الزيارة اصبحت حرة الآن بعد أن تحسنت حالة عمتي، وبعد الظهر كنت مشغولاً.»

حدثت هي نفسها، بمرارة، انه كان مشغولاً بالمقابلة، ولم تتمالك نفسها من التساؤل عن نوع هذه القصة الجديدة التي سيتابعها الآن.

عاد هو يقول: «على كل حال، عندما تحدثت مع عمتي اميلي كانت مهتمة جداً، والقلق يتملكها وهي تتحدث عن ان

ما سمته برغبتها الحمقاء في أن ترى أسرة تسكن في المنزل النهري، قد تسبب في مشكلات اخرى بيني وبين برايان.»

قالت تشارلي وهي ترتجف: «لقد اخبرتني انها خائفة من أن الشرط الذي وضعته في وصيتها هو الملوم.»

قال بول: «نعم، حسناً، اننا، أنا وبرايان، لن نرى بعضنا البعض مرة اخرى، ولكنني لا أريد ان تلوم عمتي نفسها، على أي شيء، وهكذا اقترحت انا حلاً لذلك. فالحقيقة ان برايان لم يكن يريد المنزل النهري ليسكن فيه، بل يريد ثمنه.»

عندما رآها تقطب جبينها غير فاهمة، قال يشرح لها الأمر: «لقد كان ينظر إليه كطريقة يزيد فيها نصيبه من الميراث... وهذا هو السبب في طلبه منك الادعاء بأنكما خطيبان، عندما كان يظن أن عمتي اميلي ستموت.»

التوت شفتاه بوحشية، وشعرت هي بالرجفة مع علمها بان غضبه هذا لم يكن موجهاً نحوها.

عاد هو يقول: «وكما نعلم، نحن الاثنين، كان يخطط لبيع البيت حالما يضع يده عليه، وقد وضع خبراً بذلك عند مجموعة التنقيب تلك، وهذا يظهر بجلاء أن ليس للمنزل أية قيمة عاطفية عنده. وهكذا، اقترحت انا على عمتي ان اشتري المنزل منها على أن تبقى هي فيه ساكنة بقية حياتها.»

سألته تشارلي وهي مازالت لا تستطيع تصديق ذلك: «أحقاً ستشتري المنزل؟»

أومأ برأسه بحزم وهو يجيب: «ولقد وافقت عمتي على هذا الحل.» وارتسمت على شفتيه ابتسامة جافة، وهو يتابع: «ولقد فرضت شرطاً صعباً، وهو ان ادفع فيه سعر

السوق بكامله دون أي تخفيض بصفتي من اقاربها. وليكن هذا بعلمك.»

أدركت هي من لهجته، أنه لم يكن، هو ايضاً، ليريد البيع بغير هذه الطريقة. وكان هذا ما توقعته هي، إذ أن حبه الشديد لعمته جعله حريصاً على ان يكون معها في منتهى الأمانة على مصلحتها.

عاد هو يقول: «انه مالها هي ولها أن تفعل به ما تريد من استثمار او انفاق بالطريقة التي تحب، ولكن، في النهاية، سيحصل برايان على كل ما كان يحلم بأن يؤول إليه... ولو أنني اتمنى أن يطول أمد انتظاره هذا.»

فكرت تشارلي في أن بول سيحصل على المنزل الذي يحب. كان هذا حلاً يثير الاعجاب، حلاً يخدم الجميع... ولكن، بقي هنالك مشكلة واحدة، فقد كان مجرد صحافي، وسيكلفه المنزل النهري مبلغاً غير قليل. وسألته: «انني لا أفهم، كيف يمكنك ان تدفع ثمن...»

قاطعها: «شارلوت. ان الاختلاف الرئيسي بيني وبين برايان، هو أنه يريد مالاً. لقد كان دوماً يملك المال، وباستطاعته ان يفعل أي شيء لكي يحصل عليه، وربما كان هو يظن ان في إمكاني الاستغناء عن البيت، فهو كان دوماً يحسدني على ثروتي.» وضحك وهو يرى الدهشة الشديدة تتجلى على وجهها، والتي كانت من القوة بحيث لم تستطع اخفاءها. وتابع قائلاً: «انني صحافي لأنني احب هذا العمل... فانا لست بحاجة إلى ان اعمل لأعيش، ولم اكن بحاجة إلى ذلك قط. وكذلك كان أبي الذي كان أدب الرحلات عنده مجرد هواية رغم نجاحه بصورة مدهشة، فقد زاد ريع

كتبه من ثروته التي ورثها عن والديه، ولما كنت لا أكاد أمس شيئاً من تلك الثروة التي خلفها لي، منذ ابتدأت اعمل محصلاً معيشتي بنفسي، فقد كانت تتزايد باستمرار بالاستثمار، منذ ذلك الحين حتى الآن، وهذا ما كنت اخطط له دوماً، وهو أن اعيش بما احصله بنفسي دون ان أمس رأس المال حتى اتاكد مما أحب فعلاً أن افعله به.»

تمتمت قائلة: «وهو شراء المنزل النهري.»

أومأ موافقاً وهو يقول بصوت عميق أجش: «المنزل النهري، وشيء آخر.»

ترددت في ذهنها كلمات الآنسة ماكنزي، (إسأليه، فانا متأكدة من أنه سيشرح لك كل شيء) فقالت له: «ولكنني لا أفهم لماذا تريد منزلاً كبيراً مثل هذا؟»

ارتسمت على فمه ابتسامة غامضة حذرة وهو يقول: «انني وعمتي اميلي متشابهان من بعض الوجوه. ولكن، قبل ان اخبرك، أريد ان اسألك شيئاً.» فتصلبت تشارلي في جلستها وهي تقول: «ماذا؟»

قال: «أريد ان اعلم ما الذي جعلك تظنين أنني عائد إلى لندن؟»

شعرت هي بالارتياح، فهذا، على الأقل، سؤال من السهل الاجابة عليه. وأجابت: «لأنك تلقيت مخابرة هاتفية هذا الصباح من رئيسك، وأجبته أنت بأنك ستكون هناك...» واهتز صوتها من الألم.

قال: «واستنتجت أنت من هذا انني سأبدأ العمل مرة اخرى؟ وأقلقك هذا؟» وألقى عليها نظرة فاحصة مخترقاً بعينيه عينيها وكأنه يريد ان يستلّ الحقيقة منهما، وهو يتابع: «لماذا يا شارلوت؟ لماذا ساءك ذلك إلى هذا الحد؟

لماذا كنت تبدين كئيبة إلى هذا الحد عندما دخلت الغرفة؟ هل ظننت أنني كنت سأتركك؟»

أجابت: «انني...» وأدارت رأسها فجأة بانفعال ومد هو يده يدير وجهها إليه بأصابع قوية ثابتة، وهو يقول: «تشارلي، ارجوك.» ورأت تلك المشاعر التي سبق ورأتها في عينيه من قبل، تعود إليهما على اقوى ما يكون، وتابع هو: «هل يسرك ان اخبرك انني لا أريد ان اتركك ابداً؟»

هتفت: «أنت...» كانت الصدمة من القوة بحيث شعرت معها بالدوار، وترنحت في وقفتها. وفي لحظة واحدة كان بول بجانبها يلفها بذراعيه القويتين... ولكنها لم تشأ أن تستسلم إلى عناقه هذا... ليس بعد... انها ما زالت غير متأكدة تماماً.

عاد هو يقول: «انني لا أستطيع تركك، يا تشارلي، ولم افكر قط في الانفصال عنك. وكنت أعلم أن هذا ما تريدينه أنت ايضاً.»

لم تصدق تشارلي ما تسمع. يبدو أن كل احلامها تتحقق الآن. ولكن هل هذا هو كل شيء؟ مجرد احلام سرعان ما ستستيقظ منها؟

قالت وهي ترتجف: «بول...» ولكنها لم تستطع ان تكمل كلامها.

قال: «انني احبك يا تشارلي.» وبدا وكأن هذه الكلمات انفجرت في اعماقها كآلاف النجوم، بينما كان هو يتابع، «انني لست عائداً إلى لندن أو إلى اي مكان آخر. إلا إذا...» وتغير التعبير الذي يكسو ملامحه، فجأة، وفارقتها الثقة التي كانت تكسوها تماماً وهو يقول: «إلا إذا أنت طردتني من حياتك.»

هتفت تشارلي دون وعي منها: «أوه، كلا... ابداً.»

وحالاً، زال التوتر من وجهه وهو يسألها: «وماذا قلت إذاً عن الليلة الماضية حين...» ولم تستطع أن تدعه يكمل كلامه، فقالت: «أظن انني اقول ما تريده أنت، بينما كان شعوري مخالفاً تماماً لكلامي ذاك.»

اغمض بول عينيه لحظة وهو يهمس: «لو كنت أنت قصدت حقاً ما قلته حينذاك، لكان ما قمت به اليوم، من تغيير حياتي وشراء تلك المنزل، غلطة كبرى.»

سألته، كما اوصتها الآنسة اميلي أن تفعل: «ولماذا اشتريت المنزل النهري؟»

أجاب: «لأنني، مثل عمتي اميلي، أريد أن أراه موئلاً لأسرة مرة اخرى. ثم انني كنت دوماً أريد أن اعيش فيه.»

قالت: «ولكنني عندما سألتك مرة عما إذا كنت تريد أن تعود إلى هنا للاستقرار، اجبتني بأن هناك شيئاً مفقوداً.»

أدارها بول لتواجهه، وذراعاه حول خصرها وهو ينظر في عينيها قائلاً: «لقد قلت أن شيئاً مفقوداً كان دوماً هناك في ما مضى من حياتي. ولكنه لم يعد مفقوداً لأنك أنت هنا الآن. إنك أنت ما كنت أنا دوماً اتطلع إليه.»

هتفت باسمه مطلقة آهة طويلة: «آه، يا بول، انني احبك.»

قال وهو يشد ذراعيه حولها: «ظننت أنك لن تتلفظي بهذه الكلمة أبداً.»

نظرت إليه متسائلة لتقول: «ولكن، مهنتك يا بول، ورئيسك رون...»

قاطعها: «لم يعد رون رئيسي. وكذلك مهنتي لم تعد مهنتي.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يراها تعبس

غير فاهمة، وشابت ابتسامته لمحة من الارتباك وهو يقول: «آسف لأنني لم اخبرك بالحقيقة الكاملة بالنسبة لهذا الأمر، ان احد اسباب رغبتي في البقاء هنا، هذا إلى رغبتي بأن اكون إلى جانب عمتي، هو أن افكر في الأمر ملياً، كنت قد سبق ومللت من وظيفتي تلك بأسفارها التي لا تنتهي دون أن يكون ثمة مكان يمكنني ان اسميه موطناً. وعندما جرى حادث الطائرة ذاك، كان لدي من الوقت، وأنا في سريري في المستشفى، ما أمكنني معه من التفكير ملياً. ووجدت انني اصبحت مثل أبي جوالاً على الدوام دون ان يستقر في مكان واحد. ولم احب هذه الحياة لأي من أولادي.»

ابتسم بول مرة اخرى في عيني تشارلي العسليتين المتسعتين، وهو يتابع: «ترين من هذا، أن حلمي الدائم كان أن اعيش في المنزل النهري مع زوجة وأطفال. ولكنني لم اصادف المرأة التي تشاركني هذا الحلم. لقد افادني حقاً حادث الطائرة ذاك، في الاستقرار على رأي، إذ أدركت انني واجهت الموت دون ان احقق حلمي ذاك. وهكذا حتى قبل ان اعلم بمرض عمتي واترك غواتيمالا، كنت قد صممت على الاستقالة من عملي، ولكنني لم انفذ تلك الاستقالة لأنه كان عندي إجازات كثيرة متراكمة أردت ان امضيها هنا إلى جانب عمتي. ولم اضع في حسابي أنني سألقاك لأقع في الغرام رأساً على عقب.»

قالت تغيظه: «ليس هذا حباً من أول نظرة، ذلك لأنك لم تكن لتطيق رؤيتي في البداية.»

هز رأسه بعنف قائلاً: «هذا ليس صحيحاً. لقد تعلقت بك منذ الزيارة الأولى لمنزلكم لكي اسأل عن مكان لاقامتي..

ولكنني، عند ذاك، اكتشفت انك شارلوت هارينغتون التي سبق وكتبت لي عمتي عنها. وهكذا ضربت رأسي بالحائط وزاد غضبي شعوري بانجذابي اليك وهذا لم أشأ أن يحدث.»

قالت تشارلي: «انني اتفهم شعورك ذاك، لأنني انا نفسي كنت في ذلك الوضع.»

ضحك بول وهو يهز رأسه قائلاً: «يا لنا من شخصين. ولكنني نسيت شيئاً هاماً جداً. انه عن تلك المخابرة الهاتفية التي تلقيتها من رون... لقد كان يقيم لي حفلة وداع في مكاتبهم، وكان من الطبيعي...»

قاطعته: «وقلت أنت انك (لا تريد ان تخسر هذه الفرصة). وماذا عن (تسوية بعض الأمور)؟»

تألقت عينا بول بالسرور وهو يجيب: «ذلك هو المكان الذي كنت فيه بعد الظهر. انه المقابلة.» واتسعت الآن ابتسامته وقد بان فيها الانتصار وهو يقول: «لقد اشتريت صحيفة خاصة بي. انك تنظرين الآن إلى المالك الجديد لصحيفة «سيركوري»... انني...»

مهما كان الذي سيقوله، فقد تلاشى إزاء احتضان شارلوت العنيف له تعبر بذلك عن سعادتها البالغة، وهي تقول: «لا أستطيع ان اصدق انك ستبقى هنا. وأنك لن ترحل بعد الآن.»

قال بصوت شبه مختنق: «طبعاً أنا باق هنا، هذا إذا لم تخنقيني بعناقك هذا، قبل ذلك.» وعندما تركته هي بسرعة، تابع يقول: «اتعلمين؟ انني اتساءل عما إذا كانت عمتي اميلي قد خططت لهذا الأمر فعلاً عندما اشارت عليّ بأخذ غرفة في منزلكم؟ لقد كانت شديدة التأكيد عليّ في أن هذا

المكان سيناسبني جداً. وأنا لا اصدق انها لم تكن تعلم من أية ناحية سيناسبني.»

قالت تشارلي وهي تفكر في بعض التلميحات التي كانت مخدومتها تلقيها إليها أحياناً اثناء زيارتها لها في المستشفى. قالت: «ربما معك حق، ثم إننا نعرف مبلغ رغبتها في أن ترى اسرة في المنزل النهري.»

قال وقد بدت في عينيه نظرة عميقة: «آه، نعم. بالنسبة لهذا الأمر. ما رأيك في أن نحقق لها هذه الأمنية فنتزوج؟ ويمكننا، بذلك أن نعيش في ذلك المنزل معاً، ونمنحها أولئك الأطفال الذين تحلم هي برؤيتهم.»

أجابت: «خشيت أن لا تذكر هذا الشيء ابداً، إذ ليس أحب إلي من ذلك.» وخطر ببالها، فكرة مفاجئة فقالت تسأله: «وعندما قلت منذ فترة (حظ سيىء)...؟»

أجاب: «قصدت ما قالته لي عمتي من ان سكن العريس في منزل عروسه التي كانت تعيش فيه قبل الزواج، يجلب الحظ السيىء. قالت لي ذلك عندما اخبرتها انني سأعرض عليك الزواج.» وسكت برهة، ثم قال: «اظن أن العمة اميلي اخترعت هذا الشيء لكي نبقى عاقلين إلى ان يجمعنا الزواج برباطه الشرعي.»

قالت: «إذا كانت العمة اميلي تريد أن ترى اولادنا اثناء حياتها، فمن الأفضل أن لا نضيع الفرصة.»

قال وهو يزيد من احتضانها: «هذا صحيح، لا بد ان يتم زواجنا بأسرع ما يمكن.»

تمت